مكسيم جوركي

طفولتي

(سيرة)

ترجمة

السيد وفائي

دراسة وتحرير

د. خالد محمد غازي

الكتاب: طفولتي (سيرة)
الكاتب: مكسيم جوركي
ترجمة: السيد وفائي
دراسة وتحرير: د. خالد محمد غازي
الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –
الجيزة - جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

جوركي، مكسيم
طفولتي (سيرة)/ مكسيم جوركي, ترجمة: السيد وفائي، دراسة وتحرير: د. خالد محمد غازي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٤٧ ص، ١٨*٢١سم.
الترقيم الدولى:٨ – ٢٤٤ – ٩٩١– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع :١٠١٠٨ / ٢٠٢١

طفولتي

(سيرة)

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مكسيم جوركي..

منحته الكتابة إجابات عن أسئلة أثارت حيرته

"مكسيم جوركي" هو الاسم الأدبي الذي اتخذه لنفسه "ألكسي مكسيموفتش بيشكوف"، وقد غير اسمه ليهرب من البوليس القيصري الذي كان يطارده لنشاطه الثوري، فاختار اسما دالا على حياته، فمكسيم تعني "المر" بالروسية للدلالة على ما في حياته من قسوة مرة، أما جوركي فهي تعني التلال، بدلالتها على الارتفاع عن سطح الأرض.

ولد ألكسي في الثامن مارس عام ١٨٦٨، في "نيجني نوفجورود" التي تتبع مدينة استراخان، وكان الأب قد انتقل إليها بتكليف من صاحب شركة الملاحة التي كان يعمل بها، وهناك أشرف على بناء قوس النصر الذي أقامته المدينة ترحيبا بزيارة الإمبراطور ألكسندر الثاني لها. وهناك ولد ألكسي، ومنذ ولادته وهو يعيش حياة قاسية، فوالده تزوج من والدته "فرفارا كاشيرينا" على غير رغبة والدها فطردها، ولم تعد لبيته إلا بعد وفاة زوجها، بسبب الكوليرا، وكان عمر ألكسي أربعة أعوام فقط، وسرعان ما لحق شقيقه بالأب، وهو المشهد الذي لم ينسه أبدا مكسيم جوركي، ووصف في كتابه "طفولتي" مشهد الطفل الصغير الراقد في تابوت في السفينة التي نقلتهم إلى المدينة، وكيف أن أمه بقيت تنظر إلى ابنها البكر ألكسي بنفور، وكأنه السبب في موت والده وشقيقه .

كذلك لم ينس أبدا مشهد إنزال التابوت الذي احتوى جثة والده في حفرة مملوءة بالماء حيث تقافزت حوله الضفادع، وعندما بدأ حفارو القبور إهالة التراب عليه حاولت الضفادع الخروج من الحفرة، لكن لم تستطع مما أثار شفقة ألكسي على الضفادع المحكوم عليها بالموت.

طريق الآلام

بعد شهور من الإقامة في بيت جده تركته أمه لتتزوج من رجل ثان، فاضطر جده إلى قبوله في بيته، وتولت تربيته الجدة "أكولينا إيفانوفنا" التي لعبت دورا كبيرا في تنشئة الطفل ألكسي الذي بلغ عامه السابع. لكن ساءت أحوال الجد المالية فأرسل الصبي في البداية للعمل في أحد محلات بيع الأحذية، وعندما عادت أمه إلى بيت أبيها بعد انفصالها عن زوجها، رجعت مريضة هزيلة، ثم توفيت بعد ست سنوات من وفاة أبيه، وبعدها أودع لدى أسرة من أقرباء الجدة ليعمل خادما لكنه هرب منهم بعد فترة قصيرة. وهكذا بدأت مبكرا رحلة مكسيم جوركي الطويلة في "طريق الآلام" قد بدأت منذ ولادته في نيجني نوفجورود وحتى وفاته في عزبة جوركي في الثامن عشر من يوليو ١٩٣٦.

وقد تركت وفاة أبويه في نفسه جرحا لم يندمل فبدأ كتابه "طفولتي" بمشهد موت الأب، وانتهى الكتاب بموت الأم، ثم طرد جده له من البيت ليخرج إلى العالم. ليلاقي أهوالا دفعته إلى محاولة الانتحار ليتخلص من حياته، فأطلق النار على نفسه، لكن الرصاصة اخترقت الرئة، وأخطأت القلب. ولم يكن يومها قد وصل إلى التاسعة عشرة، وكانت محاولة الانتحار

بعد فشله في الالتحاق بجامعة قازان .

ومنذ ذلك الحين بدأ صراع ألكسي من أجل العيش، فتغيرت المهن التي عمل بها، وكان من أصعبها العمل في مخبز، حيث كان يحمل في الفجر أكياس الطحين الثقيلة، ويعد العجين، ثم يوقد الفرن، وبعد ذلك يحمل الخبز والمعجنات إلى السوق.

وكان جده في البداية يرغمه على حفظ المزامير وأداء الصلوات والذهاب الى الكنيسة. وعن ذلك كتب جوركي: "لم أحب الذهاب إلى الكنيسة مع جدي، فقد كان يرغمني على الانحناء، ويدفعني دائما وبشكل مؤلم في عنقي". وفيما بعد يئس الجد منه، وتركه وشأنه، لكن ألكسي قال فيما بعد أنه فقط كان يحب التطلع إلى الأيقونات وسماع التراتيل الحزينة .

وقد تأثر ألكسي كثيرا بوفاة إخوته الذين رزقت بهم أمه فرفارا كاشيرينا من الزوج الأول ومن الزوج الثاني، الواحد بعد الآخر فعاش وحيدا.

أثر الخيال

يعتقد النقاد أن الوقائع المذكورة في كتابه "طفولتي" ربما لا تعكس حقيقة حياته في بيت جده، وربما أن الكاتب ترك لخياله العنان ليقدم عملا أدبيا لا عملا تسجيليا، رغم أن من يعرفونه أكدوا على قسوة الجد المفرطة، وقد ذكر جوركي حوادث كثيرة تعكس قسوة جده لكنه مدين له بحفظه للمزامير ولمقاطع من الكتاب المقدس، فقد أتاح له ذلك أن يتفوق في المدرسة الابتدائية الكنسية التي التحق بها.

وقد أضفى جوركي على جدته هالة من القدسية في أعماله الأدبية،

بالرغم من أن جده كان يصفها بـ"الساحرة الخبيثة"؛ فقد كانت بالنسبة له مثال للحنان والدفء، كما كانت مصدرا للحكايات الجميلة، بالرغم من أنها كانت امرأة بسيطة لا تجيد القراءة والكتابة.

لقد حلت الجدة محل الأم، فصار يحتمي بها من الآخرين، حتى حينما اضطر مرة لمغادرة البيت بأمر من جده، قالت له مودعة: "لا تغضب من الآخرين، إنك تغضب لأتفه الأسباب حتى لا تكون متعجرفا مثل جدك، وافهم شيئا واحدا، أن الرب رحيم لا يدين البشر، بل إن إبليس وحده من يفعل ذلك"، وقد روى كل ذلك في كتابه طفولتي.

مخلوقات كانت بشرا

قال جوركي: إنني ولدت جسديا في نيجني نوفجورود، بينما ولدت روحيا في قازان. وكانت فكرة الجد في أن يذهب الحفيد للعيش "بين الناس" مثله، حينما بدأ حياته العملية، فكان يجر السفن على ضفاف نهر الفولجا، ثم أصبح "إنسانا" عندما تم ترقيته إلى رئيس عمال هيئة الملاحة النهرية، ورئيس الدوما المحلي.

وفي الواقع كوّن جوركي عقيدته في الحياة في قازان، خصوصا حين عمل في مخبز كان صاحبه يوجه أرباحه لتطوير التعليم والحركة الشعبية في المدينة. وكتب جوركي عن حياته في قازان يقول: "في سن الخامسة عشرة عاما: تملكتني رغبة عارمة في أن أتعلم، لذلك سافرت إلى قازان لاعتقادي بأن العلم يقدم إلى الراغبين مجانا، ولكن تبين أن اعتقادي غير صحيح؛ فالتحقت بمخبز لصنع المعجنات مقابل روبلين في الشهر، وكان العمل

هناك من أشق الأعمال التي مارستها في حياتي."

ومن المعروف أن جوركي لم يكمل الدراسة حتى في المدرسة الابتدائية الكنسية، واجتاز فقط صفين من التعليم في مدرسة بضواحي نيجني نوفجورود، ولكنه اضطر لترك المدرسة بعد إصابته بالحصبة. كانت الفترة التي قضاها جوركي في قازان من أصعب فترات حياته الحافلة بالمصاعب، فهناك قام بمحاولة للانتحار وعمره لم يتجاوز تسعة عشر عاما، حيث حصل على مسدس ثم توجه إلى تل قريب من الدير، وأطلق النار على نفسه. يقول إن أهل المدينة هم من أنقذوه وليس رهبان الدير، وبقي ألكسي في المستشفى لفترة حتى تم علاجه، لكن واجهته محنة أخرى حيث سلّمه الشرطي أمر الكنيسة بتجريمه لارتكابه خطيئة الانتحار. وطالبه الشرطي بالتوجه إلى الكنيسة لإعلان التوبة وطلب المغفرة، لكنه رفض!

فكيف ولد روحيا هناك في قازان؟.. يقول إن الفترة التي قضاها هناك كانت فرصة للاطلاع على مخلوقات كانت بشرا، والتعرف على حياة الأقبية حيث يعيش المشردون، وكذلك التحدث مع الطلاب الذين كان يبيع لهم الكعك ، وهناك تعلم الكثير من خلال تعامله ومعاناته مع شخصيات يشبهون ديرينكوف صاحب المخبز، إذ انتقل للعمل في ورشة لرسم الأيقونات، ثم عمل في غسيل الأطباق في السفينة "دوبري"، وكان طباخ السفينة وهو ضابط صف متقاعد يحتفظ في السفينة بصندوق فيه بعض الكتب، وكان يدعوه إلى مقصورته ويعطيه أحد الكتب ويقول: اقرأ.. وإذا لم تفهم فعاود القراءة أكثر من مرة.. وحتى سبع مرات! وإذا لم تفهمه في المرة السابعة فاقرأه اثنتي عشر مرة، وهكذا اعتاد القراءة التي لم تكن

من عاداته، فصار يشتري الكتب بنفسه عندما تتوقف السفينة في الموانئ المختلفة .

وقد منحته الكتب إجابات عن الأسئلة التي كانت تثير حيرته أو قلقه، فواصل القراءة عندما ترك السفينة ليعمل في صيد الأسماك، ثم عمل بستانيا، وبعدها عمل حارسا في محطة القطار، وغير ذلك مما مارس من مهن، كان همه الأول أن يحصل على كتاب سواء بأن يستعيره من أحد معارفه أو يشتريه، أو حتى يقوم بسرقته. وقد أحب أولا الروايات المسلية وكتب المغامرات، وهو الأمر الذي أثر عميقا على أسلوبه الأدبي الذي يعتمد على الإثارة العاطفية، وهو ما عابه عليه النقاد فيما بعد.

بعد قازان سافر إلى مدينة كراسنوفيدوف، حيث تنقل كالعادة بين أعمال كثيرة، إلى أن انضم إلى جماعات تولستوي التي انتشرت في أنحاء روسيا، حيث يقوم الشباب بالعمل في المزارع بعيدا عن المدن. وقد جذبت هذه الجماعات وقتها العديد من الكُتّاب منهم: تشيخوف، وبونين، وليونيد أندرييف وغيرهم، ولم تطل فترة بقائه في المزرعة إذ تم استدعاؤه للخدمة العسكرية في مدينته الأصلية نيجني نوفجورود، لكن اللجنة الطبية رأت أنه يفتقد إلى اللياقة البدنية فأعفي من الخدمة، لعدم لياقته الصحية.

الإنسان الأعلى

بعدها عاود التجوال في أنحاء روسيا مرة أخرى، وأتيح له الاطلاع على كتب غيّرت من طريقة تفكيره؛ فهناك قرأ كتاب نيتشه "هكذا تحدث زرداشت" يرى فيه أن الإنسان مثل "الجسر" الذي أقامته الطبيعة بين

الحيوان والإنسان الأعلى، وبقيت تلك الفكرة راسخة عنده وانعكست في أعماله الأدبية، ومنها مسرحيته "الحضيض" حيث يقول على لسان ساتين: "الإنسان هو الحقيقة.. فما أعجب الإنسان."

وقد ساعدته رحلاته المختلفة في روسيا وتقلبه بين أعمال شتى، على التعرف على حياة الفقراء القاسية، فجمع كثيراً من المشاهدات والانطباعات، التي كوَّنت مادة الكثير من أعماله الأدبية اللاحقة؛ فقد كتب جوركي القصص ونشرها في دوريات مختلفة، وفي عام ١٨٩٢ بدأ بالنشر بالاسم المستعار «جوركي» قصة «ماكار تشودرا» ، ثم توالت قصصه: «تشيلكاش» و«العجوز إيزرجيل» و«أنشودة عن العقاب»، وتظل رواية «الأم» عام ١٩٠٦ من أشهر وأهم أعماله وأوسعها انتشارا، بعدها كتب ثلاثيته التي تتناول سيرة حياته، وتحمل عناوين: «طفولتي» عام ١٩١٣ و«بين الناس» عام ١٩١٦ و«جامعاتي» عام ١٩٢٣. وفي عام ١٩٢٥ صدرت روايته «مشروع آل أرتمون» التي تبرز حقبة مهمة من تاريخ روسيا (١٨٦٣–١٩١٧)، من خلال تصوير حياة ثلاثة أجيال من أسرة آل أرتمون، ثم انكب حتى وفاته على روايته الأخيرة «حياة كليم سامجين» التي يرسم فيها لوحة للحياة الاجتماعية والروحية في روسيا منذ نهاية سبعينيات القرن التاسع عشر وصولا إلى ثورة ١٩١٧

كتب جوركي إلى جانب أعماله القصصية والروائية مسرحيات مهمة عدة، منها: «البرجوازيون الصغار» عام ١٩٠١ و«في الحضيض» عام ١٩٠٢ و«المصطافون» عام ١٩٠٤ و«إيجور بولياتشوف وآخرون» عام ١٩٣١ و«دوستيجايف وآخرون» عام ١٩٣٢ و«سوموف وآخرون.«

ويُعدّ مكسيم غوركي واحدا من مؤسسي الواقعية الاشتراكية، وكان لأعماله تأثير كبير في الأدباء الذين عاصروه، ليس في روسيا وحدها بل خارج حدودها. ولا تزال أعماله الروائية والمسرحية تحظى باهتمام جمهور عريض من القراء والمشاهدين.

الرحيل

في بداية يونيو ١٩٣٦ أعلنت الحكومة السوفيتية تردي صحة جوركي، وقد وصفت التقارير اليومية التي كانت تصدر عن حالته الصحية بأنها متناقضة وحافلة بالثغرات والكذب من أجل تهيئة الرأي العام لقبول نبأ الوفاة الطبيعية للكاتب الشهير، التي أعلنت في ١٨ يونيو ١٩٣٦

وقد تمت عملية تشريح جثة جوركي على عجل فور وفاته، وعلى طاولة الطعام في بيته الريفي، وأشار تقرير التشريح إلى أن الوفاة نتجت عن التهاب حاد في الفص السفلي من الرئة اليسرى. وتم حرق الجثة وحفظ رمادها. وكان ستالين في مقدمة من شارك في مراسم جنازة الكاتب وحمل نعشه، وقد تم دفن الرماد في جدار الكرملين على خلاف وصية جوركي بدفنه بجوار ضريح ابنه في موسكو.

وفي شهر مارس عام ١٩٣٨ اتهمت الحكومة السوفيتية رسميا أعداء الشعب (الجناح التروتسكي داخل الحزب) بقتل جوركي، حيث جرت محاكمتهم وتم الحكم عليهم بالإعدام.

وطوال سبعين عاما ظلت وفاة جوركي محل شك، وطالت الاتهامات بقتله ستالين شخصيا، ويدلل أصحاب هذا القول بما كتبه رجل الأمن

المسؤول عن حماية قصر جوركي في مذكراته أن الكثير من الأطباء أبدوا استعدادهم لمعالجة جوركي، ولكن طلباتهم رفضت، وأن الحقنة التي أرسلها القنصل الروسي في باريس، وزعم أنه اكتشاف جديد سيؤدي إلى الشفاء أدت إلى تفاقم الحالة وموت الكاتب الكبير.

د. خالد مُحَمَّد غازي

الفصل الأول

كان والدي مستلقيا على الأرض أسفل النافذة، وكان مرتديا معطفه الأبيض الطويل، الذي لم أره من قبل، وكانت قدماه عاريتين منتفختين، لاحظت تقلص أصابع يديه المضمومتين إلى صدره، وعلى عينيه وضعت قطعتا عملة نحاسية، أفزعني فمه الفاغر عن أنياب الغضب.

وكانت أمي راكعة إلى جواره في ثيابها الداخلية، ورأيتها تزيح بأصابعها خصلات شعره عن جبينه، وسمعتها تتحدث إليه دون توقف، وقد تساقطت الدموع من عينيها غزيرة متدفقة، حتى خلتها تدفع عينيها من مآقيها.

شاهدت كل هذا وأنا ممسك بيد جدتي، التي كانت تنتحب، وتمالكت نفسها قليلا لتدفعني ناحية والدي، ولكنني كنت فزعا حتى أنني لم أخل بين يدي ويدها، وازددت تعلقا والتصاقا بها.

وكانت هذه هي أول مرة أرى فيها الكبار يبكون، ولم أستطع أن أفهم معنى لندائها المتكرر: «هيا ودع والدك، إنك لن تراه ثانية، لقد رحل عنا قبل الأوان»

وكنت في هذا اليوم قد غادرت الفراش بعد أن اضطرني المرض لملازمته طويلا، وكان ما قام به والدي من أجلي لم يزل ماثلا لعيني، وتذكرت كيف رأيت هذه السيدة التي أتعلق بذراعها الآن، لأول مرة بجوار

فراش مرضي.. جدتي التي كنت أريد منها أن تسرع بي إلى خارج الغرفة.

ووجدت والدتي تضمني إلى صدرها باكية منتحبة بصورة لم أعهدها منها من قبل، من هذه السيدة القوية، المتمالكة لأعصابها، المحافظة على مظهرها.. هذه السيدة ترتجف الآن منهارة فزعة. وفجأة ظهر بالباب شرطي ومعه بعض اللحادين، وصاح فينا قائلا:

– تحركوا!

ثم رأيت والدتي تسقط على الأرض وهي تتلوى من الألم، فلما وجدتني أحدق فيها دهشا حائرا، أمرتني بمغادرة الغرفة، وسألت جدتي أن توصد الباب، ونحتني جدتي جانبا، وأسرعت إلى الباب وهي تصرخ:

– أيها الأصدقاء! لا تخشوا شيئا. إنها في حالة وضع! أستحلفكم بالله أن تتركونا وشأننا! انصرفوا أيها الإخوان.

واتخذت مكاني خلف صندوق كبير في ركن الغرفة، وشاهدت والدتي تتلوى من الألم محاولة أن تكتم صرخاتها، وبجوارها جدتي مشجعة مواسية:

– صبرا يا فرفارا.. بركاتك أيتها الأم المقدسة!

وكنت أرتعد خوفا.. ورأيتهما تتعثران في حركاتهما المذعورة، بجثة والدي المسجاة على الأرض، وخيل إليّ أنه يتأملهما بوجهه الجامد وبشفتيه المنفرجتين عن ابتسامته المعهودة. واستمر هذا الهرج والمرج الذي لم تتوقف خلاله جدتي عن أداء مهمتها.

وبعد قليل سمعت صيحات طفل متقطعة، ثم سمعت جدتي تصيح

قائلة:

– شكرا يا إلهي! إنه ولد!

ثم نهضت لتشعل شمعة، ويلوح لي أن النعاس قد غلبني في تلك اللحظة، لأنني لا أذكر شيئا مما حدث بعد ذلك في الغرفة. وأذكر أنني وجدت نفسي بعد ذلك في بقعة منعزلة بين المقابر تحت وابل من مياه الأمطار. وكنت أتأمل اللحد الذي أودعوا به والدي، وكانت جدتي تقف إلى جواري باكية منتحبة، حتى انتهى الإلحاد وأتموا عملهم والقس من صلاته، فوضعت يدها على كتفي قائلة:

– هيا بنا يا أليكسي.

وفي طريقنا إلى الخارج سألتني:

– لماذا لا تبكي؟.. كان ينبغي...

ولم أدعها تتم إذ قاطعتها قائلا:

– لأنني لا أريد ذلك.

– لا تريد؟.. إذن فليس بك حاجة للبكاء.

أي بكاء هذا الذي يريدونه مني، إنني لم أعرف البكاء حزنا، ولم أعرفه إلا ثورة وغضبا. بكاء الطفل الذي يسخر من دموعه وتدوره بسببها أمه.

* * *

ووجدت نفسي بعد بضعة أيام مع والدتي وجدتي، على متن سفينة بخارية صغيرة، وعلى منضدة بحجرتنا رأيت جثة أخي مسجاة في كفنها

الأبيض، وقد وقفت والدتي تحدق النظر إلى جثة هذا الصغير الذي لم يكد يقبل إلى الدنيا حتى غادرها كارها لها، وكأنه لم يعجبه منها هذا الاستقبال السيء، وتلك الظروف الكئيبة، وخيِّل إلي أنها أبعد ما تكون عنا بنظراتها الساهمة الشاردة الحزينة. وكانت جدتي تناديها من حين لآخر أن ترفق بنفسها وأن تحول بينها وبين أشجانها، غير أن والدتي لم تكن لتحرك ساكنا، وكنت أزداد التصاقا بجدتي، وبعدا عن والدتي.

وفجأة سمعت والدتي تصرخ قائلة:

– سراتوف. أين هذا البحار؟

سراتوف.. البحار.. إنها كلمات جديدة عليّ.

وأقبل البحار يحمل بين يديه صندوقا أودعته جدتي جثة أخي، وحملت والدتي الصندوق وخرجت به من الحجرة مع جدتي. ولما أصبحت وحيدا مع البحار سألته:

– من تكون؟

– بحار السفينة.

– ومن هو سراتوف؟

– سراتوف اسم مدينة، يمكنك أن تراها من هنا.

– وأين جدتي؟

– ذهبت تودع الطفل لحده.

ثم رفعني بين ذراعيه القويتين قائلا:

– ما أشد ما تقاسي أمك، من قبل والدك، ومن بعده أخيك. إنها تنوء بحمل تعاستها.

ثم أعادني إلى أرضية السفينة قائلا:

– يجب أن أتركك الآن.

وكانت السفينة في طريقها لترسو على الشاطئ. واستسلمت للكرى بعد انصرافه، وصحوت لأجد أن السفينة قد استأنفت سيرها، ولأرى جدتي جالسة بجواري وهي تتمتم بكلمات لم أتبين لها معنى. ولما لاحظت أنني بدأت أستيقظ، أعادت لوجهها ابتسامة الحنان التي اعتادت أن تستقبلني بها قائلة:

– ما زال الوقت مبكرا.

– ليس بي رغبة للنوم.

– على رسلك، مادمت تريد ذلك.

وكان يعجبني منها ذلك. يعجبني منها هذه البساطة في كل شيء، وتركها لنفسها على سجيتها، ومعاملتها التي لا تشعرنى بقيد آمر أو سيطرة موجهة. لقد كانت أصغر من سنها حركة وروحا، ولولا ما تركه الزمن على وجهها من غضون لما صدقت قط أنها جدتي.

وبعد قليل، ومع الشمس التي راحت تبعث بأشعتها إلى مياه نهر الفولجا، كنا على ظهر السفينة، جدتي وأنا، نستمتع بسماء صافية زرقاء

تعلو قمم الجبال التي اكتست خضرة وجمالا، ونتأمل القرى والمدن التي تحف بشاطئ النهر الكبير، وكنت أسمع جدتي تردد بين لحظة وأخرى إعجابها بكل هذا الجمال جذلة هانئة، وراحت تقص عليّ في نشوتها قصص الأبطال والقديسين، وعجبت أنها لا تفتأ تردد اسم الله من حين لآخر، الأمر الذي لم أكن أسمعه كثيرا من أي من والديّ. وكانت الكلمات تنساب من بين شفتيها في رقة واتساق أقرب ما تكون نغما حزينا، وكنت أجد في الاستماع إليها نشوة لا يمكن التعبير عنها بقلمي، الذي يجري على هذا الورق حديثا، ولم تك لتفرغ من قصة إلا وأسألها أن تسترسل في أخرى. ورأيت البحارة يلتفون بنا مستمعين إليها في أعجاب، مطالبين بالمزيد من هذه الأساطير التي يطرب لسماعها الكبار، بما تثيره في نفوسهم من أحلام الصبا والشباب. وكانت هذه الحلقة تتكرر، حتى أصبحت جدتي مقصد الجميع في أوقات راحتهم، فيما عدا والدتي التي لم تكن تصعد إلى ظهر السفينة إلا قليلا، وكانت تعزف عن الانضمام إلى حلقتنا، بل وكانت تتجنبنا، وتنأى بجانبها عنا.

وأخيرا راحت السفينة تتهادى في سيرها مقتربة من «نيشني» التي لاحت لنا عن بعد. ولن أنسى ما حييت كيف هللت جدتي في فرح الأطفال الصغار لذلك، وهي تشدني إليها قائلة:

– ها هى نيشنى، ما أروعها! تأمل هذه الكنيسة!

وبعينين مغرورقتين بالدمع راحت تنادي والدتي صائحة:

– فرفارا، تعالي إلى جانبي، وانظري! ألا يحرك هذا في نفسك الذكريات؟!

وقطبت والدتي ما بين حاجبيها، ولم تجب بأكثر من ابتسامة مريرة وهي شاردة الفكر.

ودلفت السفينة إلى مرفأ المدينة الواقعة عند مجمع النهرين: نهر الفولجا، ونهر الأوكا، ورأيت قاربا يتخذ مكانه إلى جانب السفينة وبه بعض القوم. وصعد الجمع إلى ظهر السفينة يتقدمهم رجل في حلة سوداء. وكان الرجل ملتحيا أقنى الأنف أزرق العينين. وما إن وقع نظر والدتي عليه، حتى أقبلت عليه صائحة وهي تلقي بنفسها بين ذراعيه:

– أبتاه.

أما جدتي فراحت تعانق الجميع وتقبلهم، وكانت تدفعني إليهم قائلة:

– هذا خالك مايك، وذاك خالك جاك، وتلك خالتك ناتالي، وها هو ولدها الملقب باشا وابنتها كاترين. إنهم أفراد أسرتك، ما أكثرها عددا!

وعانق جدي جدتي، وراح يسألها عن حالها، ثم ربت بيده على رأسي قائلا:

– وأنت، من عساك تكون؟!

– أنا الصبي من استراخان.

فاستدار إلى والدتي مستفسرا.

بالله، بماذا يثرثر هذا الصبي؟

ولكنه لم ينتظر حتى تجيبه، واستطرد قائلا:

– هيا إلى القارب.

وتقدم جدي ووالدتي الجمع، وفي أعقابهما سائر أفراد الأسرة، وكنت مع جدتي والخالة ناتالي في المؤخرة. ولم أشعر بميل لأحد منهم، كبيرا أو صغيرا، وكنت أشعر بأني غريب عنهم حتى جدتي صارت بقربهم أبعد ما تكون عني. وكان الخال مايك أبغضهم إلى نفسي، وتملكني شعور بالنفور منه مشوب بالحذر والخوف.

وأخيرا وصلنا إلى المبنى القذر ذي الطابق الواحد عند نهاية المنحدر، كان يضيق بسكانه الكثيرين. وألقيت نظرة على واجهة البيت ارتدت إلي بعد حين بخيبة الأمل.

الفصل الثانى

فوجئت بجو عدائي يسود البيت الكبير، يسري من الكبار إلى الصغار. ولمست من أحاديث جدي أنهم لم يرحبوا بعودة والدتي، لأنها قد تعني مطالبتها بحقوقها التي حرمها منها جدي، لاعتراضه على زواجها. وألح أشقاؤه على جدي في أن يسارع بتقسيم تركته بينهم، وإن نسيت، فلن أنسى تلك الأمسية التي كنا نجلس فيها إلى مائدة العشاء بعد عودتنا بأيام قليلة، وقد احتدم فيها النقاش بين جدي وبين أولاده لعدم استجابة لمطالبهم، وما كان منه عندما ضاق ذرعا بهم من تهديده إياهم بالطرد جميعا من منزله. وقد ازدادت دهشتي عندما سمعت جدتي تضم صوتها إلى صوت الأبناء الثائرين، بحجة رغبتها في أن يسود السلام البيت الكبير. ولن أنسى كيف نهرها جدي بصوت آمر أن تلتزم جانب الصمت، وكيف نهضت والدتي عن المائدة واتجهت إلى النافذة مولية ظهرها للجميع. وبعد ذلك ساد الهرج والمرج المكان، وعلا صراخ الأطفال وتماسك الإخوان وراح جدي يسب ويلعن، ناعيا على أفراد الأسرة تفكك رباطهم العائلي.

وكان جدي منذ وصولي يوليني الكثير من عنايته، وقد عهد بي إلى الخالة ناتالي لتلقنني مبادئ الدين ونصوص الصلاة. وكانت خالتي طيبة القلب صافية النفس تشع عيناها بما تبطن بين جوانحها. وكنت إذا ما حاولت الاستفسار منها عن نص من نصوص الأدعية أو عن تعبير إلهي مقدس، أحس وكأني أرتكب إثما، وهي ترمقني بعينيها المحرجتين قائلة:

– لا يجمل بك أن توجه مثل هذه الأسئلة. ليس عليك إلا أن تردد ما أتلوه عليك.

وكنت كلما ازداد تقريعها إياي ازددت رغبة في أن أستجلي غوامض هذه المصطلحات الدينية، التي يفزع خالتي الطيبة مناقشتى لها فيها، مما باعد بيني وبين حفظها، وأسقط في يدي ذات يوم عندما سألني جدي:

– هيه يا أليكسي «أليكسي هو اسمي الأول قبل أن أعرف بمكسيم جوركى" هل وعيت صلواتك؟!

وأسرعت خالتي الرقيقة إلى نجدتي قائلة:

– إن ذاكرته ليست على ما يرام لعله بحاجة إلى أن ألسعه سوطا.. ألم يسبق أن أذاقك والدك شيئا من هذا القبيل؟!

فأسرعت والدتي بالإجابة:

– إن والده لم يسبق له أن ضربه، ولقد منعني من ذلك أيضا!

– كيف؟ هل لي أن أعرف السر في ذلك؟!

– إن تأديب الطفل لن يكون بضربه. هكذا قال أبوه.

– لقد كان زوجك رجلا أحمق، وليغفر لي الله أن تحدثت بهذه اللهجة عن رجل ميت!

ثم التفت إلي مستطردا، وكأنه قد فهم من ملامح وجهي عدم رضائي عن هذا الحديث:

– سأذيقك لسعة السوط في يوم ما.

وأخيرا جاء هذا اليوم، وكنت أنا من هيأ له الجو، وأتاح الفرصة المنشودة لجدي، بما ارتكبته من خطأ جسيم بإتلاف أحد الأغطية وعبثي به.

وذقت لسعة السوط لأول مرة في حياتي.. أذاقني إياها جدي في قسوة من أعماه الغضب، حتى حملتني أمي بعدها إلى فراش المرض، دون أن تستطيع منع والدها، أو الاعتراض على تصرفه بشيء.

وظللت طريح الفراش أياما، وكانت لهذه الأيام بالذات أهميتها في حياتي، ولعلها كانت نقطة تحول كبرى نحو شعور تام بآلام الآخرين، وتطور اتجه بي إلى تقدير ظروف البشر أجمعين، فقد استمعت فيما استمعت إليه من أحاديث بين جدتى ووالدتي إلى هذا الجدل الذي انطبعت ذكراه في ذهني وغاصت معانيه في شغاف قلبي.

بدأت جدتي عتابها قائلة:

– لماذا لم تسارعي بإبعاده عنه قبل أن ينال منه؟!

– لقد شل الخوف حركتي.

– أنت! أنت يا من كنت تباهين بجرأتك؟ واحسرتاه!

– بالله عليك يا أماه ، هلا توقفت عن الاسترسال في مثل هذا الحديث؟.. لقد سئمت كل هذا.

– إنك لا تحبين ولدك.. إنك لا تشعرين بأي عطف على هذا الابن اليتيم.

– لقد كنت يتيمة طوال حياتي

وانهارت والدتي وجلست تبكي، ثم قالت:

– لولاه، لما تحملت هذه الحياة، ولو رحلت عنكم وأن الحياة هنا هي الجحيم بعينه!

وأدركت لأول مرة أن والدتي لم تكن كما ظننتها، قوية متماسكة جامدة الشعور. إنها لم تكن لتشذ عن سائر أفراد الأسرة في خوفهم من جدي. وهي ترى في حياتها في هذا البيت جحيما لا يشدها إليه إلا وجودي، وسرعان ما رحلت عنا والدتي، في زيارة كما زعموا، وغابت من منزلنا. وبعد رحيلها بفترة وجيزة وجدت جدي إلى جانبي يتحسس بيده الباردة جبيني قائلا:

– كيف حالك أيها السيد الصغير؟ فيم سكوتك؟ ماذا تريد أن تقول؟ هيا أسمعني صوتك

ولو استطعت لركلته، لولا أن مجرد الحركة كانت تسبب لي آلما شديدا، وكان يحرك رأسه ويحدجني بنظره، وهو يخرج من جيبه تفاحة وعنقودا من العنب وضعهما على الوسادة وهو يقول:

– إنهما لك. هدية مني.

ثم انحنى وطبع قبلة على جبيني، وراح يربت على رأسي بيده الرقيقة الخشنة مستطردا:

– لقد دفعتني إلى ذلك بمحاولتك أن تقاومني لقد فقدت السيطرة على

نفسي، عندما خيِّل إلي أنك تحاول أن تعتدي عليه لقد أثقلت عليك ونلت مني أكثر مما قدرته لك. ما كان يجب عليك أن تثور على جدك الذي يتولى أمرك. أما إذا كان المعتدي عليك من غير أفراد أسرتك، فهذا شيء آخر. لقد مررت أنا نفسي بهذه المرحلة وذقت الهوان حتى صرت الرجل الذي أصبح رب هذه الأسرة الكبيرة.. هون عليك ولا تبتئس.

ثم راح يسمعني ما صادفه في طفولته من عنت، وما لاقاه من شظف العيش في صباه، فحكى الكثير عن مغامراته ساعات حرمانه مما رق له قلبى وحرك مشاعري عطفا عليه، وأدركت منه أنه ليس بهذه الصورة من السوء التي انطبعت في ذهني عنه. وتركني في حال غير الحال الذي وجدني عليها عندما أقبل ليطمئن على، وإن كنت لم أستطع أن أمحو من ذهني قسوة اعتدائه علي.

وفتحت زيارة جدي الباب لزيارات أخرى تلتها من بعض أفراد الأسرة، وكانت جدتي أكثرهم ملازمة لي، وقد شاركتني فراشي في تلك الليلة، غير أن زيارة تشيجان مساعد جدي في عمله كانت أعمق هذه الزيارات تأثيرا في نفسي، فقد أقبل علي مع المساء، وكشف عن كتفه قائلا

- تأمل هذه السحجات المتورمة الحمراء. لقد نال مني عندما كنت أحاول الدفاع عنك. وكنت أرجو أن أتيح الفرصة لجدتك أو لوالدتك لتخفيانك عن ناظريه. ولكنهما للأسف لم تجرؤا على ذلك!

ثم ضحك ضحكة رقيقة مستطردا:

- لقد شعرت بميل إليك، وإلا لما كنت عرضت نفسي للأذى من أجلك.

وبعد أن ألقى بنظرة حذرة صوب باب الغرفة واصل حديثه قائلا:

- لا تحاول ثانية أن تقاومه. إنك إن فعلت ذلك ضاعفت من آلامك. دعه يفعل بك ما يشاء.. ولا ترفع عينيك إلى عينيه إنك أن اتبعت نصيحتي هذه ستخفف من آلامك.

- وهل سيعاود ضربي؟!

- أكيد

- لماذا؟

- لأن جدك يهتم بأمرك، فاعمل بمشورتي ولا تستفزه.

الفصل الثالث

وبعد أن تم شفائي أدركت أهمية تشيجان في بيتنا الكبير، وكنت ألاحظ أن جدي يعامله أفضل مما يعامل أبناءه، وكانوا يحسدونه على ذلك، ولكنهم لم يكونوا ا يجرؤون على المجاهرة بحقيقة مشاعرهم نحوه، وقد ازداد سخطهم عليه، عندما أعلن جدي أنه مستعد أن يدفع البدل النقدي عندها يطلب تشيجان للتجنيد.

وعدت لملازمة جدتي كما كنت أفعل عندما كنا بالسفينة، وعادت إلى سابق عهدها، تسمعني قصصها وأساطيرها، التي كانت تضمنها من حين لآخر بعض أنباء الأسرة وتاريخها. ومنها عرفت أن تشيجان كان لقيطا. عثروا عليه فوق أحد المقاعد العامة وفي ليلة شديدة البرودة بالقرب من منزل الأسرة. ولما استفسرت منها عن السبب في ترك الأمهات لأطفالهن أجابتني قائلة:

– إنه الفقر يا ولدي.. الفقر في أغلب الأحيان. لقد كان جدك على وشك أن يسلمه للبوليس، ولكنني رجوته أن نحتفظ به، لعله يعوضنا عن بعض من فقدناهم من أطفالنا! لقد تزوجت في الثامنة عشر من عمري، وأنجبت ثمانية عشر طفلا، ولكن الله كان يحب ذريتي فاختار منهم معظمهم ليصبحوا ملائكة له، ولهذا السبب كنت تجدني سعيدة شقية في وقت واحد. لقد اختيروا إلى حياة أفضل، ولكن الفراق مهما يكن من أمره صعب ومرير.. إنني أحب تشيجان كأعز أبنائي لأنه

جدير بذلك أهل له، بفضل روحه الصافية وقلبه الكبير، فلتحبه أنت الآخر.

وكان من اليسير على أن أصدع بما أمرت، حيث عرفت عنه ذلك فعلا ولمست من نقاء نفسه الكثير عندما جاء يعودني إبان مرضي. ولطالما نعمت بقضاء أمسيات السبت معه، عندما كان الجميع يذهبون إلى الكنيسة، ثم تلك الأمسيات الأخرى، حين كان ينصرف جدي والخال مايك للقيام ببعض الزيارات في بعض المناسبات، ويقبل الخال جاك بقيثارته، وتنضم إلينا جدتي، ونقضي أطيب الأوقات في اللهو والعبث، بفضل تشيجان نجم الحفل المتألق.

وأذكر تلك الأمسية عندما توسطنا الخال جاك يعزف على قيثارته، متنقلا بنا بين النغم الحزين حينا، وبين اللحن الراقص حينا آخر، واستبد الطرب بتشيجان فقام يؤدي رقصاته العنيفة ضاربا الأرض بقدميه والهواء بذراعيه صارخا في صيحة المنتشي:

– آه لو أوتيت صوتا عذبا، لكنتم تسمعون مني عجبا!

ثم يقبل رئيس العمال جريجوري بصلعته الجرداء، ولحيته الطويلة الكثة يفسح لنفسه مكانا ويشترك في الرقص صاخبا واعدا بصوته الجهوري. ويميل ناحيتي هامسا:

– آه يا أليكسي، لو كان والدك معنا.. إذن فكنت ترى عجبا.. لقد كان طرازا فريدا في بابه.. ألا تذكر شيئا عنه؟!

– كلا.

– كلا. إذن فاستمع لما أقصه عليك.. ذات يوم، هو وجدتك، ولكن هدوءا.

ورفع يده حتى خيم السكون على المكان، وتقدم بقامته المهيبة ناحية جدتي، ثم انحنى أمامها يسألها:

– أكولينا، هلا تكرمت علينا برقصة كتلك التي كنت تؤدينها مع والد أليكسي!

ماذا دهاك يا رجل؟ وماذا تعني؟

وكانت تبتسم في خفاء:

– أو في مثل سني هذا؟ أو تريد أن تجعل مني أضحوكة؟ ما شاء الله!

– هيا ، وسيرى الجميع أنني جاد فيما سألتك إياه.

بهذا كان تعقيب جريجوري على تمنعها.. وفجأة، نهضت وهي تكاد أن تقفز، وأمسكت بأهداب ثوبها صائحة:

– هيا فلتضحكوا كما شئتم، فقد يفيدكم هذا. هيا يا جاك أسمعنا عزفك، وبقوة.

واستجاب الخال لها، وبدأ يعزف بأنامله على أوتار قيثارته، وقد أغمض عينيه متهيأ للانسجام مع اللحن الذي يتردد في ذهنه، وقفز تشيجان إلى حيث تقف جدتي، وراح يشاركها رقصها، ورأيناها تحلق بنظرها في الفضاء وقد مدت ذراعيها كطائر غريد سعيد بسمائه. ووجدتني أكتم ضحكة في صدري، ولاحظ جريجوري ذلك مني، فرفع سبابته ينهرني. ثم

أمر تشيجان بأن يترك الحلقة وينضم إلى دائرتنا. وراحت أوجينيا الخادمة ترفع عقيرتها بالغناء.

وخيّل إلي أن جدتي تحكي برقصها قصة أكثر من أن يكون مجرد أداء الخطوات راقصة، ورقصت ما شاء لها النغم الساري وشاءت لها خيالاتها وهي تبتسم حينا وتتجهم حينا آخر. تذبل حينا حتى ليخيل لنا أنها مشرفة على الموت، ثم تنشط حينا آخر وتدب فيها الحياة من جديد. وظلت هكذا تلعب بعواطفنا ومشاعرنا، وتبدو بارعة في أدائها حتى لم نعد نستطيع أن نتحول بأنظارنا عنها، كانت بارعة في رقصها واعية لحركاتها.

وانتهى الرقص وعادت جدتي إلى مجلسها، وصفق الجميع لها استحسانا وإعجابا، وسمعتها تقول وهي تصلح من شأنها:

-صه.. إنكملمتشاهدواإلاظلاللرقصالحقيقي.. هذاالرقص الذي لم يعد له وجود الآن. هناك في بالاكايا رأيت فتاة ترقص، ولم أعد أذكر اسمها، فيهتز لرقصها المشاهدون طربا وسرورا وتأسر لبهم بحركاتها الرشيقة.

فانبرت أوجينيا قائلة:

– إن الرقص والغناء هما أحسن ما في هذه الدنيا من متعة.

وانطلقت تغني ثانية، بينما طوق الخال جاك بذراعه تشيجان قائلا:

– لقد كنت بارعا في رقصك، سيكون لك شأن كبير في هذه المدينة.

– لو استطعت فقط أن أغني.. لو كان الله قد وهبني صوتا يمكنني من ذلك، لاشتغلت بالغناء منذ عشرة أعوام!

أما جريجوري فكاد أن يأتي على الوجود من الفودكا بالرغم من تحذير جدتي له المرة بعد الأخرى، وسمعته يقول لها:

– لا عليك من هذا. ماذا بقى لي من الحياة لأحافظ من أجله على صحتي؟

ولم يفقده الخمر وعيه، ولم يفتأ يردد على مسامعي رثاءه لوالدي قائلا:

يا له من رجل طيب القلب!

وكانت جدتي تؤمن على قوله هذا:

– أجل، إنه كان كذلك فعلا، رجل من رجال الله.

وكنت كلما سمعت شيئا من هذا القبيل، كلما ازددت حزنا على وفاة والدي. كنت أسر بسماعي عنه ذلك، وكنت أحزن لأنني حرمت منه مبكرا. إن السرور والحزن ظاهرتان متداخلتان في مشاعرنا لا يفصلهما عن بعضهما إلا خيط دقيق لا يكاد يرى، وقد يشقينا ما يسعدنا، ويسعدنا ما يشقينا.

وسرت نشوة الخمر في دماء الخال جاك، ورأيته يأتي من الحركات ما عجبت له، ورحت أتأمله وهو يشد قميصه ناعيا على نفسه أنه مخلوق تعس لا يرجى منه خير. وسمعت جريجوري يعقب على قوله هذا:

أجل، وإنك كذلك!

وانبرت جدتي، وقد لعبت الفودكا برأسها هي الأخرى قائلة:

– كفاك الآن يا جاك. إن الله معنا جميعا.

ثم بكت، وهزت مشاعري دموعها كما هز مشاعري انفعال الخال جاك. ورحت أتساءل فيما بيني وبين نفسي عن كل ما أرى وأسمع، ولم أتمالك نفسي من الاستفسار من جدتي أخيرا عن السبب فيما بدا من خالي وما سمعته منها تعقيبا على ما كان يردده؛ فقالت لي:

– أو يجب أن تعرف كل شيء؟.. ستعرف ذلك في وقت ما به

وازداد فضولي، واشتدت الرغبة في نفسي لأعرف سر ما سمعت ورأيت، ولجأت إلى تشيجان، أحاوره في الأمر دون جدوى، ولما لاحظ جريجوري ذلك مني، أقبل ناحيتي يقول:

– دعك من هذا ولا تثر مثل هذه المسائل. هيا انصرف قبل أن ينالك مني ما لا يرضيك

وكنا بالمصبغة، وكان جريجوري يتنقل من وعاء إلى وعاء ليشرف على إعداد الألوان. وسمعته قبل أن أهم بالانصراف يقول لتشيجان:

– ألم تسمع؟.. إنهم ينادونك.

وما إن انصرف تشيجان، حتى أومأ إلى جريجورى بالاقتراب منه. ولما صرت على مقربة منه، جذبني من ذراعي حتى شعرت بلحيته تمس وجهي وهو يحدجني بنظراته قائلا:

– إن خالك قتل زوجته تعذيبا وضربا، وهو يعاني الآن من تعذيب الضمير بعد أن صحا من غفوته. هل فهمت؟ إنك ستحمل رأسك مالا طاقة له به، إذ أردت أن تعرف كل شيء!

وكان جريجوري صريحا لا يحب المراوغة، وبعد أن خلى بينه وبين ذراعي استطرد قائلا:

- وكيف تم ذلك؟ لقد كانا مضطجعين في فراشهما، وفجأة وضع الوسادة على وجهها وراح يضربها بقسوة. أما لماذا فعل ذلك، فهو نفسه لا يستطيع أن يجيبك على سؤالك.

وبعد أن سرح بعينيه كالحالم، واصل حديثه قائلا:

- لعله كان يراها خيرا منه، فأثار هذا غضبه. إن السلف من أسرتك لم يكونوا يحبون خيار الناس. إنهم ينفسون عليهم ذلك، وهم يبذلون أقصى ما في وسعهم للتخلص منهم. سل جدتك عما كان من شأنهم مع والدك. إنها ستصارحك بكل شيء. وأنا زعيم لك بذلك لأني أعرف فيها الصراحة وكراهيتها للخداع. إنها امرأة عظيمة. فلتكن دائما بالقرب منها. لا تدعهم يبعدونك عنها.

ثم أخذني من ذراعي ودفعني إلى الخارج، وألفيت تشيجان في الساحة يسرع إلى جانبي قائلا:

- لا تبتئس. ارفع رأسك ولا تطرق بها هكذا.

غير أن نصحه لم يجد معي ولم يرفع من حالتي المعنوية أو يزيل عني ما بي من بؤس وحزن. واستعدت حياة والدي ووالدتي، وبقدر ما تعيه ذاكرتي، ووجدت أنهما كانا متفاهمين تسود حياتهما السعادة. وقارنت بين الحياة في منزلنا وبين الحياة في هذا المنزل المقبض الذي لا يكاد يعرف أهله الضحك، ويندر أن تجد التفاهم سائدا بين اثنين ممن تضمهم جدرانه، وأين

هذا الوجوم المتنافر من ذياك المرح المتجانس؟.. والحق أنني كنت أجد نفسي غريبا عن هذا البيت الذي انتقلت للعيش فيه بعد وفاة والدي، ولم أشعر في يوم ما أني أعيش بين أهلي وأقاربي.

وازدهرت علاقة الصداقة بيني وبين تشيجان، وشغلت عني جدتي بواجباتها المنزلية، وعندما كنت أتعرض للإيذاء من جدي كان تشيجان هو الذي يحاول أن يدافع عني ويتلقى بعض السياط بدلا مني، ثم يقبل علي في اليوم التالي قائلا:

– قلت لك لا جدوى من المقاومة. امتثل تخفف من حدته. هذه آخر مرة أكرر فيها هذا على مسامعك.

ولكنها لم تكن آخر مرة يسدي فيها إلى هذا النصح، ولم تكن آخر مرة يشاركني فيها ما ينزله بي جدي من عقاب!

وكلما تقدمت بنا الأيام معا، كلما ازدادت صداقتنا ازدهارا وتفتحت لتشيجان جنبات نفسي وتكشفت لي من جوانبه الكثير، ووجدته ذات يوم يرفعني بين ذراعيه المفتولين قائلا:

– إنك ستصبح بطلا. هذا ما أراه من لمس عظامك، وتكوين بدنك. لماذا لا تتعلم العزف على القيثارة؟ اسأل خالك أن يعلمك هذا.. أم ترى أنك أصغر سنا من أن تحاول شيئا من هذا القبيل؟ حقا، إنك لم تشب بعد عن الطوق، ولكنك تمتاز بالكثير، ولك شخصيتك المستقلة.. إنك لا تميل كثيرا إلى جدك، أليس كذلك؟

– لست أدري!

– إلى الجحيم بذويك جميعا.. لست أحب منهم غير جدتك

– وماذا عني؟

– إنك لست منهم. لست من سلالة كاشرين، أسلاف جدك، إنك من سلالة بيشكوف، آل والدك.

وأجلسني بجواره، منتقلا فجأة من حديثه هذا إلى ما كان يردده دائما ويثقل عليه:

– آه لو وهبت صوتا موسيقيا، لو كان الله قد أسبغ علي هذا من لدنه، لكان العالم قد رأى مني عجبا. هيه فليكن! ما قدر يكون. والآن إلى العمل يا صديقي.

وإلى جدار الساحة، بالقرب من بابها، كانوا قد أسندوا صليبا ضخما من خشب البلوط السميك. وقد وقع نظري عليه عند أول قدوم إلى هذا البيت، وقد بدا في أول الأمر نظيفا زاهي اللون، جديد الصنع، أما الآن فقد أحالت أمطار الخريف صفوته إلى لون قاتم تكسوه الرطوبة. وكان الصليب يشغل حيزا كانوا في حاجة إليه. ولقد كان الصليب من ممتلكات الخال جاك، ابتاعه ليثبته فوق قبر زوجته بنفسه يوم ذكرى وفاتها الذي يقع في يوم سبت من أيام الشتاء الأولى.

وفي اليوم المعهود، وكان يوما شديد البرودة متراكم الثلوج خرج جدي وجدتي ومعهما الأطفال الثلاثة بعد أن أمرت بالتخلف في المنزل عقابا لي وحرمت من الاشتراك في هذه المناسبة، وقام الخالان بمساعدة جريجوري وبعض الجيران بوضع الصليب على ظهر تشيجان بينما حملا مؤخرته كل

على كتف. وكان الحمل ثقيلا، حتى أن تشيجان القوي المفتول العضلات كان يترنح واهتزت ساقاه إعياء، وسأله جريجوري لما لاحظ ذلك منه:

– هل تستطيع أن تسير به؟

– لست أدري. إنه يبدو ثقيل الوزن.

– صه أيها الشيطان. افتح الباب.

بهذا نهره الخال مايك وانضم إليه جاك قائلا:

– ألا تخجل من شكواك، وأنت أشد قوة منا نحن الاثنين معا؟.

وفتح جريجوري الباب قائلا:

– تشيجان، كان الله في عونك! هون عليك!

ولم ينج جريجوري من تقريع مايك له بعد أن خرجوا إلى الطريق:

– أيها الأصلع الغبي.

وسر القوم لتخلصهم من هذا الصليب، وعاد بي جريجورى غير بادي الارتياح مشغول البال، وراح يحدثني عن جدي وعن قسوته وعن حبه للسيطرة، ثم راح يحدثني عن والدي وعن دماثة خلقه وعن ثقافته، وصارحني بأن جدي كان ينفس عليه كل هذا، وأنه كان لا يريد إقامته معهم. وكنت أطيب نفسا كلما سمعت شيئا من هذا القبيل عن والدي. وكنت أسرح الطرف فيما حولي من أوعية أو أقمشة وسقف وجدران، إلا من أن تستقر عيناي على وجه جريجوري الذي سمعته يقول لي:

- عوِّد نفسك على أن تثبت عينيك في عيني من يتحدث إليك.. إنك إن فعلت هذا قهرته. تمام كما يحدث هذا عندما تحدق بنظراتك في عيني كلب مسعور يحاول أن يهاجمك. إنه لن يلبث أن ينصرف عنك.

وفجأة سمعته يصيح قائلا: "ماذا جرى؟"، ووضع يده على أذنه يصيخ السمع. ورأيته يترك ما كان منشغلا به، ويركض عبر الساحة إلى البيت، وكنت أتبعه في أعقابه، وهناك على أرضية المطبخ وجدنا تشيجان ممددا وقد تعلقت أنظاره بالسقف وتفصد جبينه عرقا. وشاهدت – ويا لهول ما شاهدت – الدماء تنساب من بين شفتيه على عنقه إلى حيث يرقد. وكان مستلقيا لا حراك به، اللهم إلا من انقباض أصابعه من قسوة ما يعانيه من آلام.

وكانت أوجينا راكعة إلى جانبه، تحاول أن تخفف عنه آلامه، وسمعت صوتا هامسا يقول:

- لقد ناء بحمله الثقيل وسقط تحته إعياء، وكان من المفروض أن يكون هذا مصيرنا، ما لم نبادر بإلقاء المؤخرة في الوقت المناسب.

وكان صوت الخال جاك الذي حاول أن يشرح لنا ما حدث وقد أغبر وجهه وزاغت عيناه، وسمعت جريجوري معقبا:

- هذا من فعلكم..

- ماذا تعني؟

– إنه نتيجة عملكم!

وواصل الدم انسيابه. ثم ندت عن تشيجان صرخة، انهار بعدما كان غارقا في محيط من الوعي المفقود. واستأنف الخال جاك إيضاحه قائلا:

– لقد ذهب مايك لإخطار والدي الذي كان قد تقدمنا إلى المقابر، وأتيت بتشيجان في عربة.. حمدا لله أنني لم أكن في مكانه وإلا لكان هذا هو مصيري..

وحاولت أوجينا ثانية أن تضع قطعة من الشمع في راحته لتحول دون غرس أظافره فيها، لعلها أن تخفف عنه بعض آلامه به.

أو هكذا لن ينهض تشيجان ثانية كما كان يفعل دائما بعد أن يهجع عقب غداء يوم الأحد.. ترى لو قدر له ألا يستيقظ من غفوته بعد الظهيرة، أو هكذا يتبدل العرق دما والصحوة نوما إلى أعماق اللا نهائية، إلى أعماق هذه الأرض التي يرقد على سطحها الآن. لقد أخذت الشمس طريقها نحو المغيب وبدأت الظلال تلقي بظلامها على جسده المسجى، وها هي أصابعه قد توقفت عن تقلصاتها وسكنت، وها هي الدماء قد توقفت انسيابا، وعلت وجهه صفرة حدت بأوجينا أن تندبه مرسلة بالدموع من عينيها مدرارا. وازدادت برودة الجو، فأضافت إلى قشعريرة المكان ورهبة الموت، قشعريرة البرودة القاسية، والخوف من هذا القادم في معطفه الطويل. جدي الذي أقبل هادرا عاصفا وفي أعقابه جدتي، والخال مايك والأطفال الثلاثة وجمع من الجيران، وصرخ الجد في ولديه قائلا:

– أرأيتما ماذا فعلتما بي؟ لقد حرمت من خدماته التي كانت تساوي

وزنه ذهبا!

ولم أستطع مغادرة مكاني الذي قبعت به تحت المنضدة أن أرى تشيجان. ولكنني كنت أرى جدي وهو يواصل صب لعناته على ولديه قائلا:

- أيها الذئاب: هذا ما كنتما تريدانه.. لقد كان عظمة في حلقيكما، وكان عنصر مضايقة لكما. يالتشيجان المسكين! ترى ماذا فعلا بك؟ يا إلهي إنك لتتخلى عني في الآونة الأخيرة!

أما جدتي. فركعت إلى جوار تشيجان تحاول أن تفعل من أجله شيئا، وفجأة رأيتها تنهض صائحة:

- انصرفوا، لعنة الله عليكم

وانصرف الجميع فيما عدا جدي. ودفن تشيجان وسرعان ما نسي الناس أمره.

الفصل الرابع

كادت أطرافي أن تتجمد من شدة البرد، فتمددت في الفراش ألتمس الدفء تحت الأغطية الثقيلة، وأنا أصغي إلى جدتي في صلواتها، كانت راكعة على ركبتيها، وقد وضعت يدا على صدرها، وأطلقت الأخرى ترسم بها علامة الصليب. وبعد أن انتهت نهضت في سكون مقتربة من الفراش، وسمعتها تقول:

– أيها اللعين إنك تتظاهر بالنوم، أفسح لي مكانا تحت الغطاء

ولم أتمالك نفسي من الابتسام، وتقلبت في الفراش حتى أفسحت لها مكانها. وطالما كنت أسمع إلى ما تردده من دعوات في صلاتها. كانت تتجه إلى الله تكاد أن ترد عليه كل ما مرت به في يومها. تشكو إليه ما بين ولديها مايك وجاك من خطر في إيثار والدهما للثاني على الأول. وكانت تسأل الله أن يهدي زوجها إلى ما يجب أن يكون. ثم تسترسل بعد ذلك في ابتهالاتها ودعواتها للجميع فردا فردا حتى تصل أخيرا إلى جريجوري. وبعد ذلك أراها مطرقة في سكون قبل أن ترفع رأسها مستطردة:

– ترى هل نسيت أحدا من أفراد أسرتي؟.. لقد نسيت نفسي. إلهي إنك لتعلم حقيقة ما ينطوي عليه ضميري. لئن كنت قد أخطأت فقد علمت أن ذلك لم يكن عن عمد مني رباه! لقد وسعت رحمتك كل شيء فاشملنا برحمتك، نحن وجميع المؤمنين بك.

ثم كانت تنهض وكأنها ألقت بجميع متاعبها بين يدي ربها، وكثيرا ما حفزتني رغبة شديدة إلى أن استفسر منها عن ربها واستجلى غوامض ذاته، ولما أقدمت في يوم من الأيام على ذلك واعتدلت في الفراش قائلة:

- إنه هناك في كل مكان، فوق الجبال الشامخة وفي المراعي الخضر اليانعة. إنه على عرشه تحف به الجلالة أعظم من كل ما خلق. إنه القوة مصدر كل ما ترى في الوجود. لقد وسع كرسيه السموات والأرض، وشمل علمه كل الخلق إنه يعلم بكل ما تقول وتبطن، ويحيط بكل صغيرة وكبيرة تصدر عنك. إن حكمه هو العدل وقدره هو الحق.

- وهل رأيته؟

- أراه؟ ومن ذا الذي يجرؤ على ذلك؟ إننا نراه بعقولنا ونحس به في قلوبنا. ليس لنا نحن البشر أن نطمع في ذلك. إنه في كل مكان.

- حتى في هذا البيت؟

- إنني أعرف ما تعنيه أيها اللعين!

وليس من شك في أنها فطنت ما أعني. كيف يمكن أن يحتمل إله الخير جو هذا البيت الذي لا يحتمل لكثرة ما فيه من شر، هذا بيت لا مكان فيه إلا للشيطان.

وهذا هو جريجوري العجوز، يتمنى لو أدركه العمى ما تبقى له من عمر لينطلق من هذا البيت الذي كان يرى فيه سجنا وجحيما إلى الطريق،

حيث يجد في التسول بالطرقات حياة أفضل. وكنت أرجو له ذلك حتى أنطلق معه وأنجو بنفسي من هذا البيت المقبض. وصارحته بدخيلة نفسي في يوم من الأيام، فابتسم راضيا، مؤكدا على أن هذا ما سيكون فعلا.

- وسأسير بك في الطرقات صائحا: هذا حفيد كاشيرين، حتى يعرف الناس حقيقة أمره!

ولما سمعت زوجة الخال مايك تئن ألما في يوم من الأيام استفسرت من جدتي عما إذا كان مايك يعتدي هو الآخر بالضرب على زوجته.. أجابتني.

- أجل، يا له من شيطان! ولكنه لم يبلغ بتعذيبه لها قسوة جاك، وإنها لا تستحق منه ذلك، إنها وديعة رقيقة لا تستفز أحدا.. إن هذا هو أسلوبهم جميعا، ولكم نالني من جدك من عذاب في سابق الأيام. لقد استمر في يوم ما يضربني من ساعة الغداء إلى آخر اليوم ليلا، دون أن يكف يده عني إلا ليستعيد أنفاسه

- وفيم كان اعتداؤه عليك؟

- لم أعد أذكر شيئا عن السبب، ولم تكن هذه هي الأولى والأخيرة لقد كان يضربني أحيانا حتي أشرف على الموت، وكان يمنع عني الطعام ساعات وساعات..

وتأملت جدتي بقوامها الفارع، وقارنت بينها وبين جدي بقامته القصيرة ووجدتني أسألها:

– ولكن كيف كان يتمكن من التغلب عليك؟

– ليس الأمر أمر قوة. إنه زوجي وهو أكبر مني سنا. ولقد أمرت بطاعته والامتثال له؟

* * *

وبينما كانت جدتي راكعة تؤدى صلاتها في يوم من الأيام، وقد استغرقت في مناجاتها لربها، أقبل جدى صائحا بأعلى صوته:

– إن القدر يلاحقنا بأحداثه. لقد شبت النار بالبيت.

– ماذا تقول؟

وهبت جدتي مذعورة، وانطلقت إلى الخارج مع جدي وهى تصرخ أمرة:

– ناتالي.. عليك بالطفل.

وعدوت إلى المطبخ الذي تطل نافذته على الساحة التي رأيتها تفيض بأنوار اللهب المتصاعد، وأبصرت بالخال جاك يهرول هنا وهناك مذعورا وهو يرفع عقيرته صائحا:

– هذا كله من فعل مايك. لقد أشعل النار في البيت ثم ولى هاربا.

فنهرته جدتي، وأمرته بأن يلتزم الصمت ولا يفتح فمه، وكان صوتها حادا حازم النبرات. واتصلت النيران بسقف المصبغة، ورأيت ألسنة اللهب تندلع من بابها وبعض نوافذها.

وخرجت إلى شرفة المنزل ملتحفا بمعطف من الفراء، ووصلت إلى

سمعي أصوات جدي وجريجورى وجدتي، التي رأيتها تندفع صوب النيران وقد غطت رأسها والتحفت بغطاء من أغطية الخيل، وسمعتها تصيح فيهم بأعلى صوتها:

– تحركوا أيها الأغبياء.

وقبل أن يخف إليها أحد، خرجت من بين النيران تحمل قنينة الزاج القابل للانفجار صائحة:

– هلا رفعتم عنى هذا الغطاء. ألا ترون أن النار قد علقت بأطرافه؟

وأسرع جريجوري صادعا بما أمر، ونزع عنها الغطاء وألقى به أرضا، ثم أسرع ومعه الخال جاك تجاه المصبغة يحاولان إطفاء النار العالقة ببابها، وبعد أن دفنت جدتي القنينة في الثلج المتراكم بالساحة، أسرعت إلى الباب الخارجي الذي اجتمع عنده الجيران تناشدهم أن يهبوا لمساعدتنا:

– إن لم نسرع بإطفاء النار فورا، فستمتد ألسنة اللهب إلى المخزن ومنه إلى مساكنكم.

ووقفت تصدر أوامرها كالقائد في ميدان المعركة، موجهة كل إلى ما يجب عليه عمله. وخرجت أوجينا من البيت ومعها سائر الأطفال قائلة:

– إننا لم نعثر على أليكسي.

وأمرها جدي بأن تبتعد دون أن يهتم بما قالته عني وظللت قابعا في مكاني حتى لا يراني أحد. وعندئذ شاهدت السقف ينهار، وتزايد ارتفاع ألسنة اللهب في السماء. ورأيت أن أتحرك من مخبئى، فاصطدمت بجدتي

التي أمرتني بالابتعاد حتى لا يلحق بي أي ضرر.

وأقبل رجال المطافئ بخوذاتهم النحاسية، فأخذت بعرضهم وبزيهم، وأسرعت إلى المطبخ أراقب وأرى. وتم إخماد النار أخيرا، وتمكن رجال المطافئ من حصرها حتى خفتت ألسنة اللهب وصارت رمادا، وشعرت بجدتي تجلس بجواري إعياءً وإجهادًا.

عاد الظلام ليخيم على المكان، بعد أن كان يتقد لهبا، وسمعتها تقول:

– ترى من تكون؟.. آه أنه أنت أخائف يا أليكسي؟.. هوِّن عليك، لقد انتهى كل شيء.

ثم سمعت جدي يناديها ويسألها عن حالها، وأشعل عود ثقاب ليتحسس طريقه إلينا. وجلس بجوارها وسمعتها تقول له:

– إن ما نحن بحاجة إليه الآن، هو أن نغتسل.

– إن من نعمة الله علينا أن يلهمك الصواب أحيانا. لقد كان لك أكبر الفضل في تجنيبنا انفجارا مروعا.

وابتسمت جدتي راضية وهمت بأن تعقب. ولكن جدي استطرد قائلا:

– جريجوري هذا، يجب أن يذهب عنا. لقد كان كل هذا بسبب إهماله، عليك الآن بجاك حيث يجلس على الدرج نادبا حظه.

ونهضت منصرفة، وسمعت جدى يسألني في صوت خفيض دون أن يلتفت ناحيتي:

– إذن فقد شاهدت الحريق منذ بدايته ورأيت بنفسك ما قامت به

جدتك، لعلك لا تنسى شيئا من ذلك كله.

وبعد أن أطرق قليلا، نهض من مجلسه وهو يسألني:

– هل كنت خائفا؟

– حسنا إن لم يكن ثمة ما يخيفك.

وأمرني أن آوي إلى فراشي، فصدعت بما أمرت، ولكنني لم أجد إلى النوم سبيلا في هذه الليلة، وما كدت أغفو قبيل الفجر حتى صحوت على صراخ أبعد ما يكون عن أصوات البشر. ولقد خيّل إليّ أنه صادر من أسفل فراشي، فنهضت عدوا إلى المطبخ لأرى جدي واقفا به ممسكا بشمعة كاد يخبو ضوؤها، صائحا بأعلى صوته:

– ماذا جرى؟

وقبعت في مكاني الذي اعتدت الاختباء فيه، وعاد الضجيج إلى المنزل، ورددت جدرانه خطوات الرائحين والغادين، مع صرخات الفزع والهلع. وساد الهرج والمرج البيت، وتكررت مأساة الساحة من قبل، عندما رأيت جدي وابنه جاك يتحركان دون أن يدريا من أمر ما يفعلان شيئا. ورأيت جريجوري منهمكا في إشعال النار بالموقد وإعداد جرة من الماء، وظهرت جدتي على المسرح لتتولى قيادة الموقف كما فعلت في الساحة من قبل. وعثر بي جريجوري حيثما كنت، فقال لي:

– دائما أنت، أنت دائما حيث لا يجب أن تكون.

– ماذا حدث؟

– الخالة ناتالي قد وضعت طفلا.

– ولكن والدتي لم تصرخ هكذا عندما وضعت طفلها في حضوي.

وجلس جريجوري يدخن غليونه في انتظار غليان الماء، وراح يحدثني:

– لست أدري ماذا بوسع جدتك أن تفعل لهذا الطفل بأصابعها التي مستها نيران الحريق. لقد كان لحالة الذعر التي سادت أثناء الحريق أكبر الأثر في التعجيل بخروج هذا الطفل إلى الحياة. أرأيت ما يصاحب وضع الطفل من آلام وعناء؟ تلك هي الحياة! وهل رأيت ما تتحمله المرأة في سبيل ذلك؟ إنها جديرة بالتكريم لا بتلك الصورة من المعاملة التي تلقاها في هذا البيت.

وغلبني النعاس على أمري، وغفوت لأصحو على ضجة أخرى حيث سمعت صوت أبواب تصفق وتفتح في عنف، وصياح الخال مايك المخمور.

وتسللت من مخبأي لأصطدم بساقي الخال مايك لسوء الحظ. وسمعته يزمجر ويهددني متوعدا. وعدوت فزعا لأصطدم بجدي في البهو، وكانت تباشير الصباح قد بدأت تلوح من زجاج النوافذ التي كساها ضباب الفجر الزاحف، ورأيت جدي يلتفت إلي بعد برهة قائلا:

– ماذا بك؟

وكان ما بي كثيرا، كان هذا الضباب المخيم في الخارج، مخيما على ثنايا ذهني وفي تلافيف رأسي، وكان جسدي مجهدا ينبض بالتعب والإنهاك، غير أني لم أشعر برغبة في الشكوى والإفصاح عما بي، لأن كل شيء حولي كان

يبدو غريبا غير مألوف ففي كل مقعد كان يجلس رجال تختلف ملابسهم وأعمارهم، فهذا رجل دين في ثيابه المعروفة، وذاك رجل في حلته العسكرية، إلى آخر هؤلاء الجالسين في سكون كالأصنام لا يتحركون. وسمعت جدي يقول للخال جاك الذي كان واقفا مستندا إلى باب القاعة:

– خذ هذا الصبي إلى فراشه

وأمرني خالي بأن أتبعه إلى غرفة نومي. وما إن استقر بي المقام في الفراش، حتى سمعته يقول لي هامسا:

– لقد توفيت الخالة ناتالي.

– وأين جدتي؟

– بالطابق الأرضي.

وخرج من الحجرة على أطراف أصابعه، وظللت في مكاني أنظر فيما حولي دون أن يغمض لي جفن، وخيل إليّ أنني أرى أشباحا تحوم حولي في كل مكان، وغطيت رأسي بالوسادة، لأتفادى النظر إلى هذه المخلوقات بينما أفسحت لعيني فرجة أستطيع منها أن أرقب باب الغرفة. وبعد قليل فتح الباب ودخلت منه ثم أعادت غلقه بكتفها، وقد مددت يديها أمامها، وراحت تبكي كطفل قائلة:

– لكم تؤلمني يداي.

الفصل الخامس

ذات مساء بعد تناول الشاي، وبينما كان جدي يرتل بعض مقطوعات من كتاب ديني، وكانت جدتي مشغولة ببعض شئون المنزل، أقبل الخال جاك منفعلا:

– لقد عاد مايك إلى هياجه، يحطم الأطباق ويفسد الثياب، ويمطرنا بوابل من السباب، أنا وجريجوري، وهو الآن في طريقه إلى هنا مهددا متوعدا.

ونهض جدي في تباطؤ متكئا بمعصميه على المنضدة، وقد تجهم وجهه واختلجت عضلاته قسوة وشرا صائحا:

– أو سمعت أيتها الأم؟ إن ولدك في طريقه إلى هنا ليقتل أباه. إنها اللحظة المرتقبة، اللحظة المرتقبة!

واستقام عودا، ثم اتجه صوب الباب ورفع مزلاجه الحديدي موجها حديثه إلى جاك:

– لقد كان كل هذا نتيجة طمعكم في نصيب فارفارة.. تلك هي مشكلتكم.

– أنا؟ وماذا تراني فاعلا به؟

فضحك الأب في وجه الابن بازدراء وفي نبرات قاطعة كالسيف:

- بخ لك، أنت؟ إني خير من يعرفك..

وفرغت جدتي مما كانت تقوم به، وتقدمت ناحيتهما لتؤدي دورها من التدخل عند الاقتضاء، وسمعت جدي يقول لها متهكما:

- هيا فلتسرعي بتسليم هذا الثعلب الماكر قطعة من الحديد أو شيئا من هذا القبيل.

ثم التفت إلى جاك مستطردا:

- حتى إذا ما أقبل شقيقك هادرا فلتقتله قبل أن يقتل أباك.

ووضع الخال جاك يديه في جيبي سرواله، وتنحى جانبا وهو يقول:

- فليكن ما دمت لا تريد أن تصدقني.

- أصدقك أنت! إنني خير من يعرف ألاعيبك! لقد قدمت إله الخمر وزينت له الإسراف في احتسائها حتى صار ألعوبة في يدك.. فيم وقوفك هكذا؟ لماذا لا تقتلني أو تقتله؟ هيا التقط سلاحك!

وهمست جدتي في أذني:

- أسرع إلى الطابق الأعلى وأرقب الطريق، حتى إذا ما رأيت الخال مايك مقبلا، فلتبرع بالعودة لإخطارنا بذلك.

وشعرت بالزهو لهذا الدور الجديد الذي عهد به إلي، ووقفت عند النافذة أرقب القادم في الطريق، وكان القادم هو الخال مايك. ورأيته يضع إحدى يديه في جيبه والأخرى تحت لحيته، ولم أستطع من مكاني أن أتبين وجهه، ولكنه كان في عجلة من أمره غير أنه بدلا من أن يواصل سيره

صوب منزلنا، عرج على حانة في الطريق.

وأسرعت هابطا الدرج إلى حيث كان جدي وأنبأته بالأمر، وبعد أن أبدى دهشته لما سمعه مني، أمرني بالعودة إلى مراقبة الطريق، وصدعت بما أمرت، وعدت إلى مكاني من النافذة. وأقبل الليل وطال انتظاري، ووجدتني أفكر فيمن يحيطون بي في هذا المنزل، الذي قدرت على الحياة فيه بعد وفاة والدي الذي كان مضطهدا من جدي ومن الخالين، والدي الذي كانت جدتي وجريجوري وأوجينيا يطنبون في الإشادة بخلقه، ووالدتي: ترى أين هي الآن؟ والدتي التي بدأت أفكر فيها وازدادت صورتها في ذهني انطباعا يوما بعد يوم؟.. والدتي التي كدت أن أنساها في غمار هذه الأحداث المتلاحقة وهذا الكابوس المزعج! والدتي التي رفضت أن تعيش في هذه البيئة. إن عزوفها عن هذه الحياة قد ضاعف من تقديري لها. ترى ماذا كان من مصيرها؟ لقد كنت أتخيل والدتي في كل مكان، وبدأت صورتها تحتل حيزا كبيرا من أحلامي وتفكيري. وهبطت من آفاق خيالي إلى عالم الواقع، عندما سمعت حركة عند الباب الخارجي، ورأيت جدي والخال جاك وصاحب الحانة يدخلون الخال مايك من الباب وهو في حالة هياج شديد يضرب الهواء بقبضتيه يمينا ويسارا، ويتلقى منهم أكثر منها لكما وركلا. ثم رأيته يسقط مترنحا، بعد أن دخل الساحة. وقام جدي بغلق الباب وإحكام رتاجه بعد أن ألقى به خارجا. وعاد السكون إلى المكان، وعادت جدتي إلى صلواتها وابتهالاتها أن يشمل الله بيتنا برحمته.

وتكررت هذه الأفعال من الخال مايك المخمور، وكلما تقدمت بنا الأيام ازداد مايك استهتارا وعبثا، وطالما سمعته يجترئ على أمه بفحش

القول، عندما كانت تزجره على ما يأتيه من فعال وكنت أخشى على جدتي منه. وفي إحدى الليالي، سمعت جدي يندب حظه قائلا:

- لولا خشية الفضيحة، لأبلغت الشرطة بأمرهما وقدمتهما للمحاكمة، سيقولون أب يتسبب في القبض على ولديه! وهكذا أجد لزاما علي أن أتحمل ما أنا فيه في سكون راضخا!

إليك عني.

ثم وقف بالنافذة يصيح بأعلى صوته:

- أنت يا مايك.. أيها اللص.. أيها الكلب المسعور.

وجاءنا الرد قطعة من الحجارة اخترقت النافذة إلى حيث كانت تجلس جدتي بجوار المنضدة. فصاح فيه جدى متهكما:

- لقد أخطأت المرمى.

ونهضت إليه جدتي، وأمسكت به من كتفيه، وكأنها تمسك بي، وأعادته إلى فراشه وهي تردد في نبرات فزعة:

- ماذا ألم بك؟.. ماذا كان يدور بخلدك؟.. إن مصيره إلى سيبيريا. إنه لا يدري من أمر نفسه شيئا.. دعه إلى ربه!

وفي صوت يفيض بغضة الألم أجابها جدي:

- دعيه يقضي عليّ! ألا ليته يقتلني!

واستمر مايك في هديره، وأسرعت التقط قطعة الحجارة متجها بها إلى

النافذة، ولكن جدتي اعترضت سبيلي وانتزعتها مني، وألقت بها جانبا، وهى تصرخ في وجهي: أيها الشيطان الصغير.

وتكررت أفعال الخال مايك فأعد له جدي كمينا ومعه بعض الرجال ليمسكوا به ويؤدبونه. وحاولت جدتي أن تحذره، ولكنه اندفع يزيحها من طريقه بعنف، حتى سقطت على الأرض تتلوى من آلامها، واقتحم الباب الداخلي هادرا مزمجرا، وسمعت جدى يصدر أوامره لمن معه من رجال قائلا:

– اضربوه ولكن ليس على رأسه..

وتمكن المجتمعون من تقييده وإيداعه (بدروم) البيت، ثم جاءوا لجدتي بامرأة تجبر لها عظامها، ودخلت وأنا أراها تتلوى ألما، فاندفعت لأبعد المرأة عنها، فرمقني جدي بنظراته الغاضبة، وحملني بين يديه صاعدا إلى أعلى حجرة بالمنزل.

الفصل السادس

سمعت جدي وجدتي يتحدثان عن تصرفات الخالين في الأيام الأخيرة، وأنها سوف تؤدي إلى إفلاس جدي، وكان الحل الوحيد – في رأي جدتي – أن يتركهما يفعلان ما يريدان من حيث انفراد كل منهما بمصبغة له. ورأى جدي أن في ذلك إهدار لحق والدتي، لكن جدتي أقنعته برأيها، ونفذه عندما حل الربيع، فأصبح الخال جاك في المدينة، والخال مايك على جانب النهر، واشترى جدي منزلا فسيحا في نفس الشارع استعمل طابقه الأرضي كحانة. وكان بالبيت كثير من الغرف الفسيحة المريحة وحديقة مورقة جميلة. وسكنت أنا وجدتي بالطابق الأعلى. وكانت نافذة حجرتنا تطل على الطريق، رأيت منها السكارى ينصرفون مترنحين، يملأ ضجيجهم الحي كله. وكنت أجد في تتبع ذلك كل مساء تسلية كبرى لي تغنيني عن قصص جدتي.

ودأب جدي على زيارة ولديه بمصنعيهما، ليساعدهما على تخطي عقبات البداية، وكان يعود في المساء مجهدا، وشغلت جدتي نفسها بشئون المنزل، وكان هناك دائما ما يشغلها. وكانت سعيدة قريرة العين تجد في عينيها حيرة الحمد، وكيف يكونه بعد أن أتيحت لها أخيرا تلك الحياة المستقرة الهادئة. وكانت من فرط سعادتها تحدثني بذلك من حين لآخر.

ولكنني لم أكن أشاركها فكرتها هذه عن الحياة الهادئة الوادعة مع كل هذا الصخب والضجيج الذي يحدثه نزلاء يترددون على الحانة. وكان

الجميع لا يفتأون ينادونها عندما يستجد من الشكوه ما يدعوهم لأن يرفعوا أصواتهم منادين:

– أكولينا!

وكانت الجدة أكولينا تسارع لإجابة طلب النزلاء وتعمل على راحتهم وترشدهم إلى خير الوسائل لراحتهم، وكانت قبلة الجيران الذين يقصدونها لتحل لهم ما استعصى عليهم حله كما كانت تهدي نساءهم سواء السبيل.

وكنت ألازمها أينما سارت، في الحديقة وعند الجيران وفي كل مكان، كنت أشبه بجزء من كل، كفرع من أصل التصق به، وإن أبرز صورة من صور هذه الفترة من حياتي، لهي صورة تلك السيدة النشطة التي كانت تملأ الدنيا من حولها حركة وثقة بها. وكنت أتساءل من فرط دهشتي: أنى لها كل هذا النشاط وتلك الحيوية وقد بلغت هذا المدى من حياتها؟.. سألتها مرة:

– هل أنت ساحرة؟

– إن السحر علم يا ولدي، وأنا لم يتح لي أي نصيب من العلم.

ثم استرسلت لتكشف عن جانب من حياتها:

– ألا تعرف أنني كنت يتيمة مثلك. لقد كانت أمي فلاحة بائسة عاجزة قاست من شظف العيش ما قاست وتحملت من الحياة الأمرين. أما والدي فلم أعرف عنه شيئا، ولم يقع نظرى عليه. لقد ألجأت أمي ظروف الحياة إلى التسول واضطرتها إلى التنقل من بلد إلى بلد وراء لقمة العيش. وكنا نجد في أزهار الربيع جمالا وفي حرارة الصيف دفئا

ووقاية. ولم يمنع هذا والدتي من أن ترفع عقيرتها بالغناء عندما يشجيها جمال الربيع.. كنا نرى من الحياة جانبها الحلو، بالرغم من كل ما كنا نعانيه كان القلب خاليا من الهموم بالرغم من وهدة الفقر التي كنا نتردى فيها، لم نكن نعرف من هموم الحياة إلا هما واحدا، ألا وهو الفقر والحرمان.

وما أن بلغت التاسعة من عمري، حتى رأت والدتي أنه يجمل بها أن لا تصحبني معها وهي تجوب المدن والطرقات؛ فكانت تخرج بمفردها وتتركني في عقر دارنا لأتعلم صناعة «الدنتلا». وأتقنت الحرفة في مدى عامين إتقانا جعلنا قبلة للراغبين في اقتناء شيء منها، وكنت أقوم بأي عمل لأعاون والدتي التي كنت مدينة لها بما بلغته من إحاطة بأصول الحرفة التي تلقيتها عنها، والتي أعجزها عن المضي فيها عجزها. حتى ظهر جدك على مسرح حياتنا، شابا يافعا في الثانية والعشرين من عمره وكانت أمه قد اختارتني لابنها لشدة إعجابها بي. ومن هنا كانت النقطة الأولى في مصيرى الذي استتبع مما استتبع أمك، ومن بعدها أنت.

* * *

ومرت الأيام، وذات مساء فيما أذكر، كنت أتناول الشاي مع جدتي في غرفة جدي. وكان عليلا ملازما فراشه عدة أيام، وقد أشفقت عليه إذ رأيت يده تهتز ضعفا وهو يمدها لتناول قدح الشاي من جدتي، ولاحظت ما طرأ عليه من تغيير وعلى خلقه من وداعة، حتى أنه عندما طالب بالمزيد من السكر وكان أقرب إلى طفل صغير يسأل أمه في صوت خفيض تأدبا.

– لقد أضفت للشاي القليل من عسل النحل، إنه خير لك من السكر.

– قد يكون مرضي هذا هو خاتمة المطاف.

– لا تقل هذا، إنك بخير!

– هذا هو رأيك. إنني لا أخشى الموت لذاته! إنني أخشاه لأنه يقبل في وقت غير مناسب، وأنني إن مت الآن فقد انهار كل ما بنيت، وكأنني لم أتم شيئا في حياتي.

– لا تتكلم كثيرا. أرجو أن تهدأ نفسا

ولكنه لم يستطع أن يلتزم جانب الصمت لأكثر من دقيقة واحدة، وبالرغم من أنه كان مغلقا عينيه، إلا أن شفتيه لم تتوقفا عن الحركة والتمتمة، وفجأة سمعته يفرغ ما كان يجول بخاطره قائلا:

– على كل من جاك ومايك أن يجدا لهما زوجتين فورا؛ فبهذه العلاقات الجديدة تتوطد دعائم حياتهما وتزداد استقرارا. ألست ترين ذلك؟!

وبدأ يعدد أسماء من يصلحن لذلك. وآثرت جدتي أن تلتزم جانب الصمت متشاغلة بقدح الشاي الذي بيدها. ورحت بدوري أتطلع إلى انعكاس أشعة الغروب على صفحة السماء، وعلى أشجار الحديقة الخضراء. وعلى حين غرة مني، سمعت جدي ينادي بعد أن فتح الكتاب الذي تناوله قائلا:

– اقترب مني أيها الجاهل لتتعلم شيئا، اجلس هنا وراجع معي..

وجلست، ورحت أردد معه مما يشير عليه بسبابته من كلمات وينطق مخارج حروفها، ولما لاحظت جدتي أنه يجهد نفسه قالت له:

– إنك تجهد نفسك، وأولى بك أن تخلد إلى الراحة.

– هلا توقفت عن لومك. إنني بحاجة إلى ذلك، لأسري عن نفسي!.

واستأنف تعليمي ومراجعة الحروف الهجائية معي، وجاريته في النطق بها بأعلى صوتي، ولاح لي أنه سر من ذلك أيما سرور، ولما نال منه الإعياء ألقى بالكتاب جانبا وهو يقول لجدتي:

– أرأيت كيف ينطق الكلمات وكأنه كلب ينبح، هذا الاستراكاتي الصغير؟

– إنك أنت الذي بدأت برقع عقيرتك.

ولأول مرة في حياتي، أراهما يضحكان معا في جذل وسرور، ولقد سرني ذلك حتى ولو كان ضحكهما على حسابي.

قال لي، وهو يمد يده بالكتاب:

– اجتهد أن تحفظ الحروف الأبجدية عن ظهر قلب، فإذا ما استطعت ذلك في الغد، كان لك مني خير الجزاء.

ولما اقتربت منه لأتناول الكتاب، وجدته يضمني إليه قائلا:

– يبدو أن أمك لم يعد يعنيها من أمرك شيئا.

فانبرت جدتي تعنفه قائلة:

– كيف تجرؤ على التفوه بذلك؟

– ما كان ينبغي لي أن أقول للصبي شيئا من هذا القبيل، ولكنني لم

أستطع أن أكبح جماح نفسي. ترى أي طريق سلكت؟

وخلى ما بينه وبيني قائلا:

– يمكنك أن تهبط إلى الحديقة أو إلى ساحة المنزل فقط، على ألا تتجاوز ذلك إلى الشارع.

وانطلقت إلى الحديقة التي كنت أتوق للهو بها، وشاركني بعض صبية الحي لهوي، وعبثا ما شاء لنا العبث. ثم عدت لأستذكر في كتاب جدي.

وانطلقت في تعلم القراءة والكتابة، بفضل عناية جدي ودأبه على تعليمي، وبفضل ما كنت أشعر به من رغبة عارمة في الإلمام بأصولها. وازداد حدبه عليّ وازددت اقترابا منه وفهما له. وكنت أكثر من أسئلتي التي تحرجه، وكان يلذ لي أن أداعبه من حين لآخر بها، لآراه وقد احمر وجهه ورفع قبضته في وجهي مهددا، ولكنني كنت ألاحظ أنه يحاول أن يخفي ابتسامته التي تختلج بها شفتاه، وسرعان ما كان يستعيد سماته الجادة مقطبا ما بين حاجبيه.

وكنت أسأله من حين لآخر أن يسرد على مسامعي بعض قصصه، وبعد أن يتمتع قليلا، يضطجع في مقعده الوثير، ويحلق بعينيه في فضاء الغرفة قليلا، ثم يبدأ في سرد بعض قصص صباه وشبابه، وكيف قتل بعض قطاع الطرق أباه ليسلبوه ما كان معه، ولست أذكر شيئا عن تفاصيل ما حدث، لأنني كنت في طور الطفولة. ولست أستبين مما كان إلا بعض صور غامضة مشوشة ومما أذكره عندما قبض رجال الشرطة على المتهمين، كيف أرادت الجماهير أن تفتك بهم.

وكان يغلق عينيه ليستعيد ما اختلط عليه أمره من ذكريات. وكنت أستحثه ليذكر ما غاب عنه ويتم ما كان بسبيل أن يسرده على مسامعي. وكنت أجد في الاستماع إليه لذة كبرى، وكانت تلك اللحظات التي أقضيها معه مصغية إلى قصصه من أحب اللحظات إلى قلبي.

وكان يلتزم جانب الصمت فترات طويلة، وكنت أراه يرمقني بنظراته وكأنه يراني لأول مرة. وكان يتجنب الحديث عن والدي، وكانت جدتي تقطع علينا خلوتنا من حين لآخر، لتلقي عليه بسؤال من هنا أو من هناك، أو لتذكره بشيء مما كان يقصه علي، وكان الحديث يتشعب بهما أحيانا ليمس نشأة أبنائهما، وسمعته يندب حظه في أبنائه ذات يوم قائلا:

– لقد حرمنا الله من رحمته في أبنائنا، فها هي فارفارة..

فانبرت جدتي تقاطعه، حتى لا يسترسل فيما كان بسبيل النطق به:

– كفانا من الحديث هذا الحد!

– ولماذا؟ أليس هذا هو الواقع؟ إن أبناءنا لم ينشأوا نشأة مستقيمة. استعرض حياتهم من أي جانب شئت. لقد خيبوا آمالنا فيهم!.

وكان ينهض عن مقعده وهو يئن أنين الموجع، مقتربا من جدتي حيث تكون، وقد رفع قبضته في وجهها ثائرا:

– أنت المسئولة عن كل ذلك. لقد تسببت في إفسادهم تدليلك إياهم وانضمامك دائما إلى جانبهم.

ثم تبلغ الأزمة ذروتها، بالدمع يفيض من عيني الشيخين في حسرة

وتوجع، وأخيرا كنت أسمع جدتي تقول:

– لم ترهق نفسك هكذا؟ إنها إرادة الله التي لا يمكن أن ترده، وهل نحن الذين خصنا القدر بذلك وحدنا؟.. ثمة غيرهم ممن هم أسوأ منهم حالا: أن أبناءنا لم يكونوا طرازا فريدا في بابه ها وما أظننا بأول ولا بآخر الآباء الذين يندبون حظهم في أبنائهم!

وكان الجدل يشتد بينهما أحيانا، حتى يبلغ بهما التشابك حد اعتداء جدي عليها بالضرب، وكنت أود لو استطعت أن أدفع عنها اعتدائه، فإذا ما حدثتها في ذلك دهشت لإجابتها الهادئة، وأعجبت بنفسها المتسامحة، وبمحاولتها أن تبرر قبح فعلته.

الفصل السابع

أدركت في وقت مبكر أن إيمان جدي يختلف عن إيمان جدتي. وقد ألح هذا الخاطر على ذهني، حتى أنني كنت أحاول أن أبعده عنه، لما كنت أعرفه من أن الإيمان يجب أن يكون واحدا بالنسبة للكل، تماما كما أن الله واحد كرب للجميع.

وكنت أرى جدتي، تبدأ صباحها بالدعاء بأن يشملها الله برحمته ويجعل من يومها يوما سعيدا، وكنت أحرص على الاستماع إلى ابتهالاتها ودعواتها.

وكان جدي عندما يستيقظ مبكرا من وقت لآخر، يصعد إلى غرفتنا ليجد جدتي مستغرقة في ابتهالاتها، وبعد أن يصغي إلى دعائها، كان يزم شفتيه غير راض وينكص على عقبيه. فإذا ما جلسنا إلى مائدة الإفطار أسمعه يقول لها:

- كم من مرة علمتك فيها كيف تتوجهين بدعائك. وفي كل مرة كنت أستمع إليك في صلواتك كنت ترددين ما سبق أن نهيتك عنه.

وكانت جدتي تجيبه في هدوء الواثق من نفسه:

- إن الله يحيط بما في ضمائرنا وما لا نكشف له عنه أن أسلوب الأداء وألفاظه المعبرة ليس بذي بال. إنه يرى ويسمع كل شيء، وليس التعبير بذي أهمية أن العبرة بما في القلوب!

وكنت أشعر بأن جدتي مؤمنة بوجود الله إلى جانبها في كل لحظة من

لحظات حياتها. وكانت لا تفتأ تردد اسمه حتى في حديثها إلى الحيوانات، وكانت ترى ربها في كل ما يحيط بها من خلق من بشر وحيوان ونبات. كل ما في الكون منه واليه ويستمد الحياة منه، وبتصرفاتها هذه، وبإيمانها هذا غرست في قلبي الإحساس بوجود الله في كل زمان ومكان، وكان أول مظهر من مظاهر هذا الإيمان في نفسي أنني لا يجمل بي أن أكون كاذبا في حضرة الله – أليس الله موجودا في كل مكان؟ وهكذا أقلعت عن الكذب، لأني كنت مؤمنا بأن شيئا ما لا يخفى على الله العظيم، وهكذا كنت أقرب ما أكون إلى الله فهما وتقديسا وإيمانا بوجوده!

وكان جدي يلقنني فيما يلقنني إياه، أن الله قوى وعليم يطلع على كل شيء، ولكن ابتهالاته ودعواته وصلواته كانت تختلف عن نظيرتها مما تؤديه جدتي، فلم يكن يدعو الله في كل مكان، كان يدعوه في المكان المخصص لذلك بالمنزل بعد أن يرتدي ثيابه ويستكمل زينته. وكانت صلواته وابتهالاته في صيغ منمقة متكررة جوفاء، تشعر بأنها لا تخرج من القلب – كان يقف في ركن العبادة مطرق الرأس لا يتحرك، دقيقة أو بعض الدقيقة، ثم يرفع رأسه في انتصاب قامة الجندي مرددا الصلاة، ثم يستطرد في تلاوة أدعيته في تواتر رتيب لا روح فيه.

وكنت أتابع ما يردده في كل صباح، حتى وعيته عن ظهر قلب وكانت أدعيته ألفاظا مرصوصة تتكرر كل يوم، بخلاف ما كانت تتجه به جدتي في كل صباح قبل أن تنهض من فراشها، فقد كانت جدتي ترسلها دعوات كيفما اتفق لها من لفظ.

وكنت ألاحظ أحيانا وأنا أستمع إلى صلوات جدي، أنه نسي كلمة أو بدل من وضعها. فإذا ما فرغ من ذلك وجلس إلى مائدة الإفطار، كنت أوجه نظره إلى ما وقع فيه من خطأ، وكان يجادلني في ذلك غير مصدق، وكنت أثبت على رأيي وأذكر له الكلمة موضوع ملاحظتي على وجه التحديد، وينتهي به الأمر إلى أن يوافقني كارها أن يعترف بخطأه وقد بدت الحيرة في عينيه، وكنت أشعر بالسعادة لأنني استطعت أن أحرجه وأكشف له عن خطأه، وكانت جدتي تتدخل أحيانا لتزيد من حرجه قائلة:

– أظن أن صلواتك قد أصبحت مصدر ضيق لربك. هذا التكرار الممل الأجوف!

وكان يحدجها بنظرات غاضبة في هذه اللحظة من لحظات حرجة، حتى كنت أخشى من أن يعتدي عليها كما ألفت منه ذلك من حين لآخر، وكان ينظر إليّ شذرا متوعدا بأن ينالني منه ما لا يرضيني، لأنني كنت السبب في كل ما أثير. بل وكانت جدتي تتمادى أحيانا فتصارحه:

– أستطيع أن أحكم مما أسمع، إن شيئا مما تتجه به إلى الله، لا يخرج من قلبك.

فيثور ويقذفها بأقرب شيء يكون في متناول يده، ثم يدخل معها في جدل ديني عن الذنوب وعن الغفران وعن الشعور بالإثم، وعن الخطأ المتعمد وغير المتعمد، وكانت جدتي تقارعه الحجة بالحجة، وهي الأمية التي لا تعرف القراءة والكتابة، ولكن أقوالها كانت تصدر عن قلب فطر على الإيمان المبسط العميق، كما كان يلذ لي أحيانا أن أتدخل، عندما تعجبني

حجة من حجج جدتيقائلا:

– ما قولك في هذا؟

فكان يحدجني بنظراته قائلا:

– ألا يكفيك ما أثرته أيها اللعين! إنها عجوز حمقاء لا تلقى بالا إلى ما تقوله. إنها أمية جاهلة لم تتلق نصيبا من التعليم، حتى الديني منه. بل وأنني أمنعها من أن تخوض في هذا الحديث أمامك.

ويرمقها بنظرات ثابتة تأمينا على ما قاله وما توعدها به، وتأكيدا لواسع علمه وعميق اطلاعه. وأجد أنه قد آن الأوان لتغيير مجرى الحديث، فأنبري له مستفسرا:

– حدثني عن القوانين. ما هو القانون؟

فيعتدل في جلسته، وقد لمعت عيناه سرورا أن أتحت له الفرصة ليظهر علمه:

– آه القانون؟.. إنه حصيلة عادات الناس وتصرفاتهم، فحتى يتسنى للناس أن يعيشوا معا، يتعين عليهم أن يتفقوا على ما يحدد لهم أسلوب حياتهم، فيقررون هذا ما يجب أن يكون وذلك ما لا يجب أن يكون، تلك هي قاعدة حياتهم معا! ثم تصبح هذه القاعدة في نهاية الأمر قانونا. بمعنى أن تجتمع هذه القواعد لتصير القوانين التي تستفسر مني عن ماهيتها.

* * *

كان الخروج إلى الشارع محرما عليّ، لأنني لم أخرج إليه إلا وعدت شاكيا مما ألقاه من الصبية المجتمعين به، فقد كنت ألاحظ روحهم العدائية ضدي، وكانوا ينعتونني بالكاشيريني المدلل، وكثيرا ما كنت أدخل معهم في شجار نتبادل فيه اللكمات، ولكنني كنت أعود أدراجي مقهورا أمام كثرتهم وتألبهم علي، وكانت جدتي تتلقاني ناعية علي تكرار ذلك، متسائلة عما أصير إليه بمجرد خروجي إلى الشارع، وهي تعرف عني أنني الوديع الهادئ.

ولم يكن يطيب لي الخروج إلى الشارع، بالرغم من أوامر جدي، إلا عندما أجده مزدحما بالأطفال، وتصل إلى مسامعي ضحكاتهم وأصوات عبثهم. ولم أكن أخشى اعتداءهم المتكرر علي.. ومما كان يحفزني للخروج رغبتي في أن أرى جريجوري، مقدم العمال السابق، متسولا بعد أن أصابه العمى وطرده جدي من خدمته، وقد استند بيده على كتف امرأة تولت زمامه تسأل الناس في إلحاح أن يتصدقوا عليه بشيء! أما جريجوري فلم يكن يتفوه بحرف واحد، كان مطبقا شفتيه وواضعا يده الأخرى على صدره تحت لحيته الكثة. وكان يمشي منتصب القامة على استحياء مما صار إليه حاله، مطأطئ الرأس.

وكنت كلما وقع نظري عليه، وسرعان ما كانت تخرج إليه وتعطيه ما تجود به عليه، وتقضي معه بعض الوقت في حديث ضاحك من جانب واحد، لم يكن يبادلها فيه إلا بضع كلمات قليلة وضحكات نادرة مكبوتة. وكانت تدعوه أحيانا إلى المطبخ حيث تقدم له بعض الطعام، حيث كنت أسمعه يسألها عني، غير أنني كنت أختبئ في الساحة لشعوري بالحرج عند مواجهته. وكنت أحس بأن جدتي هي الأخرى تشعر بما أشعر به في

وجوده. ولم تحدثني في ذلك، إلا مرة واحدة، بعد أن ودعته إلى الخارج، وعادت لتسألني:

- لماذا تتجنب الرجل؟ إنه رجل طيب، وأنت تعلم أنه يحبك!

- لماذا طرده جدي؟

- جدك؟ فلتذكر جيدا ما سأخبرك به، سينزل الله بنا عقابه الشديد بسبب ذلك، وسيذوق جدك الأمرين بسبب ظلمه للناس.. إن من لا يرحم الناس لا يرحمه الله. لقد قضى الرجل عمره في خدمتنا وفقد بصره في مصنعنا، ولكن جدك لم يرحمه، وألقى به إلى الشارع!

ولم تكذب نبؤتها؛ فبعد عشرة أعوام، وبعد أن توفيت جدتي كان جدي يقوم بنفس جولات جريجوري متسولا وقد فقد عقله، سائلا الناس تحت النوافذ الرحمة، مستجديا قطعة من الخبز يسد بها رمقه.

الفصل الثامن

وفجأة باع جدي البيت الذي كنا نقيم به، وانتقلنا إلى بيت آخر في شارع كاناتاروا، بيت تكسو جدرانه النباتات المتسلقة، نظيف هادئ، لأنه يقع في نهاية صف طويل من المساكن عند مشارف الحقول. وكانت حديقته على صغرها بديعة التنسيق منمقة الأحواض مزدهرة. تحد من ناحية بحظائر جياد الكونت أوسيتانيكوف، ومن الناحية الأخرى بمبنى بتيلنجا. أما طرفها البعيد فمتصل بمعمل لبن السيدة بتروفتش الممتلئة الجسم، ذات الوجه الأحمر المكتنز.

وكنت أرى في النزلاء خليطا من الناس لكل طابعه الخاص؛ فهذا جندي من التتار وزوجته البدينة القصيرة ذات الصوت المتهدج، التي تصر على أن ترفع عقيرتها بالغناء بمساعدة قيثارتها، والتي لم تكن لتجد من ينتشي بغنائها غير زوجها الذي يجلس بالنافذة وغليونه في فمه، وهو يتمايل يمينا ويسارا، طربا وسرورا. وذاك جندي تتاري آخر يدعى فالي كان يعمل مراسلة لأحد الضباط ومعه الخال بيتر وابن أخته ستيفن، وفي الحجرة الخلفية الملحقة بالمطبخ كان يقيم من يكنى «بالفكرة الطيبة» وكانت لهذه الحجرة نافذتان تطل إحداهما على ساحة المنزل، والأخرى على الحديقة، وكان شاحب الوجه ممشط اللحية يستعين بنظارته على قصر نظره، خجولا منطويا على نفسه، فإذا ما دعي لطعام أو شراب ردد "فكرة طيبة"، وهذا ما دعا جدتي لإطلاق هذا الاسم عليه، حتى في حضوره. ولم يكن الرجل

ليضيق بهذه التسمية.

وكانت حجرته مزدحمة بصناديق الكتب المكدسة فوق بعضها، وكما لاحظت وجود عدد من القنينات المحتوية على سوائل مختلف ألوانها، وبعض القطع المعدنية – من حديد إلى نحاس إلى صلب – وكنت أراه منشغلا طوال يومه بصهر هذا وخلط ذاك، ومراجعة ما في هذه القنينة إلى آخر هذا من عمليات لم أكن لأفهم منها شيئا. وكنت أرقبه من المكان الذي اخترته لهذا الغرض، الساعة تلو الساعة، وقد استبدت بي الدهشة مع الفضول، وكان يبدو إلي أنه لا يحس بوجودي. ولم أكن لأخشاه، لأنني كنت أرى مظاهر الفقر بادية عليه، وقد تلقيت عن جدتي أن الفقراء لا يجب أن يخشى جانبهم عطفا عليهم، وعن جدي نفس التعاليم وإن كانت بدافع الاحتقار لهم.

ولم يكن «للفكرة الطيبة» أصدقاء بالمنزل، كان الكل يتجنبونه، واستفسرت من جدتي عما يشغل به هذا الرجل فأجابني.

ليس هذا من شأنك.

وأخيرا اقتحمت عليه نافذته متسائلا:

– ماذا تفعل؟

فرمقني بنظراته، وأشار إلي بيديه أن أتسلق النافذة، وازداد احترامي له لأنه لم يعنفني لاقتحامي عليه خلوته، ودعاني للدخول من النافذة. ولما مثلت بين يديه سألني:

– ترى من أين أتيت؟

وبدا لي هذا السؤال غريبا شاذا، لأنني كنت أجاوره إلى مائدة الطعام أربع مرات في اليوم فقلت له:

– إنني حفيد المالك!

– آه ها هو ذا أنت!

ولم يعقب بشيء آخر، وأردت أن أزيده إيضاحا:

– ولكنني لست كاشيريني، إن لقبي بيشكوف!

– بيشكوف؟ لا بأس بذلك.

واتجه إلى المنضدة، وأمرني بالجلوس ساكنا، وطال بي ذلك وأنا أرقب ما كان يفعله. كان يخلط هذا المسحوق بذاك السائل بتلك القطعة من النحاس حتى يتصاعد نتيجة لهذه العملية دخان يزكم الأنف.

– رائحة كريهة، أليس كذلك؟

– بلى.

– حسن. هذا دليل طيب، على أن العملية قد أثمرت.

– ماذا أثمرت؟ وكيف يتفق هذا مع تلك الرائحة الكريهة؟

– هذا ما لا قبل لك بإدراكه.

وخرجت إلى الحديقة لأجد جدي منشغلا بتهذيب شجرة تفاح فسألته:

– أي عمل هذا الذي يقوم به «الفكرة الطيبة»؟

– عمل! انه عبث يضر بحجرته، بأرضيتها وبستائرها.. إنني سأطالبه بتركها.

وفي الليالي الممطرة، التي كان يتصادف فيها خروج جدي لشأن من شئونه، كانت جدتي تجمع النزلاء والجيران بالمطبخ لقضاء بعض الوقت، وكان الرجل يتخذ له ركنا يقبع فيه دون أن يحدث صوتا أو يأتي بحركة، أما سائر الحاضرين فكنت أراهم ودعاء ناعمين بدفء المكان، لاهين عابثين.

وفي تلك الأمسية التالية لزيارتي له طاب لجدتي أن تسرد على مسامع الحاضرين إحدى قصصها المثيرة التي كان يلذ لي سماعها بالرغم من تكرارها، ولأول مرة لاحظت أن "الفكرة الطيبة" يشارك الحاضرين ما يضطربون فيه ويخرج عن عزلته. وكان يرهف أذنيه مصغيا، يضيق بأية حركة أو أي صوت، آمرا من يأتي بشيء من هذا القبيل بالتزام الصمت والهدوء، فإذا ما فرغت جدتي من سرد قصتها، كان ينهض متحمسا وهو يقول:

– رائع! يالها من قصة!

ورأينا أن تأثره قد بلغ به حد انهيار الدموع من عينيه، وأنه كان يروح ويغدو في الحجرة مرددا إعجابه بمغزى القصة، قبل أن ينصرف إلى حجرته ويترك الحاضرين يتبادلون النظرات الحائرة الضاحكة. ثم كنت أسمع كلا منهم يدلي برأيه في تصرفه هذا. وقد أثارتني تعليقاتهم لأنني كنت أرى فيما حدث ما هو جدير بالنظر والتمعن، ولأن تلك الدموع التي فاضت من

عيني الرجل مست شغاف قلبي، ودلت على شفافية مشاعره.

وجاء جدي، في الليلة التالية بعد العشاء، يمشي على استحياء كطفل مذنب قائلا:

- أرجو ألا أكون قد ضايقتك بما صدر مني في الليلة الماضية؟

- وماذا صدر منك؟

- مقاطعتي لك وعدم تأثري بما سمعته من قصتك!

- لا عليك من هذا.

ولاحظت أن جدتي لم تكن كعادتها مع الناس، كانت تتحاشى التقاء عينيها بعينيه، وتتحدث إليه في لهجة متحفظة مبتعدة عنه، فازداد اقترابا منها قائلا بصوت متهدج:

- إنها الوحدة القاسية. إنني أشعر أحيانا بأن روحي قد فصلت عن جسدي، وأنني تواق لأن أتحدث إلى الصخر والشجر ها.. إنها الوحدة القاسية المريرة التي لا ترحم!

وابتعدت جدتي عنه قليلا، قبل أن تقترح عليه:

- ولماذا لا تتزوج؟

وما أن سمع ذلك منها حتى رفع ذراعيه في الهواء وقد اختلج وجهه فزعا قائلا:

- ماذا؟

ثم انطلق عدوا، وتعقبته جدتي بنظرة مقطبة ثم التفتت إلي محذرة:

– ابتعد عن هذا الرجل هل تسمعني؟ إن الله وحده يعرف حقيقة هذا الرجل..

غير أن هذا التحذير قد أدى إلى عكس المقصود منه، فقد زادني تعلقا به. لقد تتبعت خلجات وجهه عن كثب وهو يشكو من الوحدة القاسية، وكان لشكواه رد فعل في نفسي، إشفاقا وإدراكا لحقيقة ما يشعر به، وانطلقت أبحث عنه.

ووقفت في الساحة أتأمل نافذة غرفته، ولاحظت أنه متغيب عنها، واستطعت أن أتأملها عن كثب لأرى ما هي عليه من فوضى وألمس غرابة محتوياتها كما لمست غرابة أطوار شاغلها. وواصلت طريقي إلى الحديقة حيث وجدته جالسا يتأمل عودا من النبات نصف محترق، أقرب ما يكون شبها بقطعة من الفحم.

ولاحظت أنه لم يشعر باقترابي منه، لأنه كان مستغرقا في تأمله لما بين يديه، فلما ازددت اقترابا منه، واستطاع أن يراني بقدر ما مكنته به عيناه قصيرتي النظر، سألني بنبرة مرتابة:

– أو تبغي مني شيئا؟

– كلا.

– إذن ففيم قدومك إلى هنا؟

– لست أدري.

فرمقني بعينيه قليلا، ثم دعاني للجلوس إلى جانبه، وجلس مطرقا يتأمل الزرع حينا، ويسرح الطرف في السماء حينا آخر، وكأنه نسي وجودي، واقتطع لنفسه مكانا من الكون بعيدا، لا حس فيه ولا حياة، وسمعته بعد قليل يخرج عن صمته ليقول لي:

– إن جدتك امرأة ممتازة. إنها لؤلؤة نادرة.

ثم أغمض عينيه وراح يردد بعضا مما كانت تسرده على مسامعهم من حكم وعظات بين ثنايا قصصها في سهرات المساء. وأردف قائلا:

– فلتحتفظ بكل هذا في خاطرك، أو تعرف كيف تكتب؟

– كلا

– تعلم الكتابة يا ولدي، حتى تستطيع أن تسجل قصص جدتك، إنها قصص جديرة بأن تسجل فعلا!

ومن هنا بدأت علاقة صداقتنا، ومن بعدها كنت أزوره كلما شعرت برغبة في هذا. وكنت أجلس الساعات الطوال أراقبه في عمله. كنت أراه يزن هذه المادة وبطرق هذا النحاس ويذيب تلك القطعة من الصلب في نار عالية الحرارة، ثم يخلط هذا وذاك ببعض السوائل الكيمائية، ويقف يرقب تفاعلها، وتنقبض أساريره حينا، وتنبسط حينا آخر، حتى وجدتني أسأله:

– ماذا تفعل؟

– أصنع شيئا يا ولدي.

– وما هو هذا الشيء؟

– ليس من اليسير أن أوضح لك الأمر.. إنك لن تفهم شيئا.

– لقد سمعت من جدي أنه لا يستبعد أن تكون من مزيفي النقود أو أشياء أخرى من هذا القبيل!

– أو هذا ما يقوله جدك؟! هكذا؟ إنه يقول ذلك لأنه يريد أن يبدو بمظهر العالم ببواطن الأمور.. يا ولدي، إن المال خدعة كبرى. إنه وهم وغرور..

– وهل يمكننا أن نحصل على خبزنا بدونه؟

– كلا. إنه وسيلة الشراء فعلا، وبدونه لن نحصل على حاجياتنا.

وابتسم وشدني من أذني قائلا:

– إنك مجادل خطر، من الخير لي ألا أقحم نفسي في جدل معك.

ولطالما كان يجلس إلى جانبي بغرفته، لا يشغل نفسه بشيء غير أن يتأمل كل ما حوله من زرع وسماء ومطر متساقط، لا ينطق بحرف واحد، وإذا ما أراد أن يلفت نظري لشيء كان يلكزني بذراعه أو يومئ إلي برأسه. لطالما كان يثير اهتمامي بأشياء لم تكن تستثيرني في كثير أو في قليل. بقطة حذرة تحسب لكل خطوة من خطواتها حسابا، أو بطائر غرد سعيدا بقدرته على التحليق من دوح إلى دوح. أو بغير ذلك من ظواهر أخرى كنت لا أهتم لمرآها أو لحركاتها من قبل.

وازدادت محبتي له يوما بعد يوم، وكنت أجد في صحبته لذة كبرى

وراحة نفسية لا تعدلها أخرى، في تعاستي وفي فرحتي على حد سواء. كان لا يصادر أقوالي ولا يعنفني حتى على التافه منها، كما كان يفعل معي جدي دائما. كما أنني لم أكن لأجد هذه الاستجابة لدي جدتي، لانشغالها بشئون المنزل وعدم وجود الفراغ الكافي لديها. أما «الفكرة الطيبة» فكان يصغي لما أقول بعناية وانتباه، ولا يقاطعني إلا ليقول لي:

– ليسر الأمر كما تقول يا ولدي. إن صحته هي...

ثم يستطرد موضحا لي في جلاء ما أخطأت فيه وما غمض أمره علي، وإني إذ أستعيد كل ما كان يقوله لي ويحدثني به، أجد أن كل توجيهاته كانت حكما ومقاييس صحيحة لما يجب أن يكون. أما الآخرون، فكانت كراهيتهم «للفكرة الطيبة» في ازدياد، حتى القطط كانت تتجنبه ولا تستجيب لندائه، وكان هذا يضايقني منها، حتى أنني كنت أنهرها، وأطاردها، فلما لاحظ ذلك مني قال لي:

– إن رائحة الأحماض التي تفوح من ملابسي تنفرها مني.

أما الغير، بمن فيهم جدي، فكانوا يعللون تلك الظاهرة بكل ما يسيء إليه، زورا وبهتانا وتحاملا. ولطالما كنت أسمع من جدتي هذا السؤال:

– فيم اختلاطك بهذا الرجل؟ إن ما تتعلمه عنه ليس فيه غناء، وستلمس ذلك بنفسك في يوم ما.

أما جدي، إذا ما تصادف وشاهدني خارجا من غرفته، فقد كان يعنفني ويزجرني لزيارتي لهذا الرجل «الضائع» على حد تعبيره. وبديهي، أنني لم أشعر صديقي بشيء من هذا كله، ولكنني كنت أحاول أن أعطيه

فكرة عن بعض ما يقال عنه.

– إن جدتي تفزع منك؛ فهي تقول أنك عدو الله، وأن وجودك هنا فيه مخاطرة كبرى.

فكان يطرق في وجوم ينقبض له قلبي، ثم أسمعه قائلا، في صوت ذليل مستضعف:

– لكم يسوءني أن أسمع ذلك.

وأخيرا صدر إليه الأمر بإخلاء الحجرة؛ ففي إحدى زياراتى الصباحية وجدته يعد حقائبه. ولما لاحظ مني نظرتي المتسائلة قال لي:

– إنه الوداع يا صديقي. إني راحل.

– ولماذا؟

– أو يمكن أنك لا تعرف؟ إنهم يريدون إخلاء الغرفة لوالدتكم.

– من قال لك هذا؟

– جدك.

– لقد كذب فيما قاله لك؟

– لا تبتئس. لقد خيل إلي أنك تعرف وأخفيت الأمر عني

ثم أطرق قليلا قبل أن يستطرد قائلا:

– أو تذكر في أول عهدك بصداقتي أنني نصحتك بالابتعاد. لقد كنت أتنبأ بأن هذه العلاقة ستكون وبالا علينا وستجر عليك وعلى المتاع،

وهذا ما كان فعلا.

– تري لماذا يقفون جميعا منك هذا الموقف؟

– لأني لست من طرازهم ولست مثلهم، ألم تر ذلك؟

ولم أحر جوابا.. ولم تسعفني الكلمات.. ولم أجد غير أن أضغط بيدي على يده إظهارا لحقيقة مشاعري. وعاد يقول لي:

لا تبتئس، ولست أحب أن تبكي لفراقي

وكانت دموعه تسبق كلماته متدفقة من تحت زجاج نظارته، وودع الجميع في هدوء وسكون. ورافقته حتى الباب الخارجي حيث استقل العربة التي أودعها متاعه، ثم عدت إلى جدتي أسألها:

– هلا نبأتني بالسبب في مطالبته بإخلاء الحجرة؟

– لا تتدخل فيما لا يعنيك.

– إنكم حمقى.. كلكم حمقى!

– هل فقدت صوابك؟ هل جننت؟

وألقت في وجهي بما كان في يدها

– لم أعنك معهم. إنني أعني الآخرين.

وهكذا فقدت صديقي الثاني حيا، بعد أن فقدت الأول ميتاّ.

الفصل التاسع

عشت طفولة أشبه بخلية نحل، فيدخل في حياتي من الناس من تعددت ميولهم، تاركين في نفسى مختلف الانطباعات، ويكون هذا العمل أحيانا مشوبا بما يعكر صفاءه. وأحيانا بما يجعله مر المذاق، ولكنه مع هذا وذاك، كان عسلا على أي حال.

واحتل بيتر، الحوذي، مكان "الفكرة الطيبة"، وكان قريب الشبه بجدي في التزامه بعاداته وتقيده بمظاهر الحكمة والاتزان، ولكنه كان أقصر منه قامة، وأصغر سنا، وكنت تراه فتحسبه لأول وهلة شابا لم يكتمل نموه بعد يؤدي دور الرجل العجوز.

وكان العم بيتر – كما كنا نسميه – على جانب من الثقافة والتعليم، وكان يجلس إلى جدي الساعات الطوال، في جدل حول بعض المواضيع التاريخية الدقيقة، والدينية الرفيعة، وكثيرا ما كان ينتهي بهما جدلهما إلى الاختلاف على بعض النصوص، فيتمسك كل منهما بوجهة نظره وينهض غاضبا.

وكان العم بيتر رجلا أنيقا، يحرص على نظافة ثيابه، ويأنف من كل مظهر من مظاهر القذارة، وكان يثور إذا ما وجد بالساحة زجاجا محطما أو ما شابه ذلك من النفايات التي لا نفع فيها، وكنت إذا ما أسرعت إليه أسأله عما به ينهرني قائلا:

– اتركني وشأني.

ولكنه كان في معاملته لي بصفة عامة، مقسطا معتدلا، يشعرني بأنني قد شبت عن الطوق. غير أنني لم أكن لأحله من نفسي محل صداقة «الفكرة الطيبة» أو أشعر نحوه بشيء من الود، بالرغم من محاولته التقرب لي بمختلف الوسائل، وسمعته يسألني ذات يوم.

– هبه أيها السيد الصغير، أي سبيل ستسلك؟ الالتحاق بالجيش أم بالوظائف المدنية؟

– الجيش.

– جميل! إن الجندية اليوم تختلف عما كانت عليه في سابق العصر والأوان.

وواصل كلامه يقارن بين هذه الوظيفة وتلك، وبين تلك المهنة وغيرها، حتى انتقل إلى توجيه النصح والإرشاد التبصيري بأنني يجب أن أكد وأشقى لأتعلم وأدرس، وأروض نفسي على تحمل السعات سوط جدي في سبيل ذلك، ثم يعرج بعد ذلك إلى سرد بعض تجاربه في الحياة وما أتصل بهم من قوم إلى غير ذلك من قصص اتهمني بها من قبل جدي وجدتي. حقيقة أنها كانت تختلف بعض الشيء عما سبق سمعته منهما، إلا أنها كانت متماثلة في جوهرها.

* * *

وكان أبناء خؤولتي يحضرون لزيارتنا في بعض أيام الآحاد أو العطلات الرسمية، وأثناء إحدى هذه الزيارات، صعدنا إلى سطح المنزل حيث أشرفنا

على ساحة سكن آل بتلينجا التي رأينا بها سيدا يلهو ببعض الكلاب حديثة الولادة. واقترح البعض أن نسرق جروا من المجموعة، بعد أن نشغل السيد عنها، فلما استفسرت عمن وقع عليه الاختيار بارتكاب ذلك، علمت بأنني البطل المختار، ولما أعدت الاستفسار عما يمكن أن أشغله به قيل إلي بأن أبصق على صلعته. وراجعت نفسي قبل أن أقبل القيام بهذه المهمة. وسرى في نفسي الشعور بالإثم لاقترافي مثل هذا الوزر. ولكنني عدت فتذكرت أنني سمعت وشاهدت أوزارا أجل خطرا ترتكب من حولي.

وأخيرا قبلت ما عهد إلى به، وشرعت في التنفيذ، وقد لازمنى سوء حظي الذي لم يسبق أن تخلى عني. ووقعت في شر أعمالى بينما تخلى عنى أبناء خؤولتي وأنكروا علمهم بأي شيء، ووقعته بين أيدي جيش من الخدم أتوا بي إلى جدي يشكون إليه ما كان مني. ولم يتأخر جدي في أنزال أشد العقاب بي ترضية لجارنا السيد العظيم..

وتوطدت العلاقة بيني وبين صبية آل أوستيانيكو في جيراننا الآخرين، وكانوا بحق من الصبية الممتازين، دماثة خلق وكرم خصال؛ فإذا ما تصادف ووقعنا في خطأ ما، حاولوا إصلاحه. وإلا فإنهم يتحملونه على جانبهم معرضين أنفسهم لعقاب والدهم الذي لا يقل عن عقاب جدي. وقد علمت منهم، وكانوا ثلاثة، بأن والدتهم قد توفيت، وأنهم يعيشون في كنف والدهم وزوجة أبيهم، التي يقاسون منها الأمرين.

وكانوا يدعونني إلى ساحة دارهم خلسة، وقد رآني والدهم ألهو معهم في الساحة فاستشاط غضبا وأمرهم بدخول المنزل، بعد أن سألهم عمن

أكون، ثم استدار إلي يطردني محذرا إياي من العودة إلى ساحة دارهم، وهو يدفعني بيده الغليظة حتى انكفأت على وجهي، مما حدا بي إلى أن أصفه بالشيطان.

وكان الرجل فظا غليظ القلب، علمت فيما بعد بأنه كان كولونيلا بالجيش. ورأيته مقبلا في أعقابي إلى منزلنا، حيث التقى بجدي وشكا إليه ما صدر مني. وكان أن نهض جدي ليرضيه، منزلا بي أسوأ أنواع العقاب..

ومع ذلك فإنني وأصدقائي لم نعدم وسيلة للالتقاء خلسة حيث كنا نجلس الساعات الطوال نتبادل قصص الماضي، ماضي الصبية الصغار، يحكون لي الكثير عن جدتهم التي كانوا يرونها قريبة الشبه بجدتي حنانا وحدبا عليهم. وكانوا يندبون حظهم لفقدهم إياها هي الأخرى.

* * *

في صباح ليلة ممطرة تجمدت حبات بردها، كنت أقوم مع جدي بتطهير الساحة، عندما أقبل شرطي مقتحما علينا باب الساحة معيدا إغلاقه بإحكام قبل أن يومئ لجدي بالاقتراب منه.

وما أن اقترب منه جدي حتى مال الشرطي على أذنه يسر له بكلمات لم أستطع أن أتبين منها شيئا، ولكني رأيت جدي يصيح في دهشة:

– هنا.. يا إلهي.. متى كان ذلك؟ رباه.. أو يمكن أن يحدث شيء من هذا القبيل؟

– أخفض من صوتك.

فلما التفت جدي ووجدني، قال لي:

– دع ما بيدك وادخل إلى المنزل.

فأسرعت أختبئ في أحد الأركان، ورأيتهما يدخلان إلى حظيرة الجياد. وشاهدت الشرطي ينزع القفاز من إحدى يديه ويضرب به على يده الأخرى قائلا:

– إنه يعرف أننا كنا في أثره، لقد ترك الجواد في الطريق وأسرع يتخذ له من هذا المكان مخبأ!.

وأسرعت إلى جدتي أنبئها بالأمر، واستمعت إلي دون أن يبدو عليها أنها فوجئت بما همست به إليها. ودهشت إذ سمعتها تعقب قائلة:

– ربما يكون قد سرق شيئا.. اذهب إلى شأنك!..

وعدت إلى الساحة لأجد جدي عند بابا يرسم علامة الصليب على صدره، ومع ذلك فقد رأيت ملامح الغضب يختلج بها وجهه، بل ورأيت جسده كله يهتز غضبا، وراح ينفث عن صدره بالصياح في وجهي:

– قلت لك أن تختفي عن وجهي.

ثم اصطحبني إلى المطبخ حيث دعا جدتي لمرافقته إلى غرفته المجاورة حيث تحدثا فيها همسا. فلما عادت جدتي إلى المطبخ أدركت أنها قد استمعت إلى ما لا يسر، وسألتها:

– ما لي أراك فزعة يا جدتي؟

– صه.

وساد جو من التوتر في البيت طوال النهار، ولاحظت أن جدتي وجدي كانا يتبادلان نظرات قلقة، وكانا يتحدثان همسا. وما أن مالت الشمس للمغيب، حتى سمعت جدي يأمر بإضاءة جميع مصابيح المنزل. وتناولنا طعامنا بسرعة آلية، وكأننا كنا ننتظر قدوم زائر له أهميته. وبدا جدي متعبا، وكان صوته مختلج النبرات، وهو يقول:

– ما أشد تأثير الشيطان على الإنسان وعلى البشر جميعا في كل زمان ومكان، حتى على رجال الدين.. يا له من تأثير.

ومرت ساعات هذا اليوم ثقيلة متباطئة، في جو من القلق والوجوم، وأقبل شرطي آخر قبيل المساء واتخذ له مقعدا بجوار الفرن بالمطبخ يحتمي فيه من برودة الشتاء، وسألته جدتي.

– ماذا تم في الموضوع؟

فأجابها باقتضاب:

– لقد توصلنا إلى الكثير. لا تقلقي!

وأذكر أنني كنت جالسا بجوار النافذة عندما وصلت إلى مسامعي أصوات مزعجة من الدهليز، وبعد قليل أقبلت جارتنا بتروفنا البدينة، بائعة اللبن، تصرخ في فزع:

– تعالوا لتروا ما يجري هناك؟

وما أن وقع نظرها على الشرطي القابع في مقعده حتى حاولت النكوص على عقبيها.. ولكنه تمكن من الإمساك بها قائلا:

– مكانك. من أنت؟ ماذا يجري هناك؟

وأسقط في يدها، وركعت على ركبتها أمام الشرطي تقول مرتجفة:

– عندما توجهت إلى حظيرة الماشية، كان هناك... هذا الشيء الذي كان هناك في حديقة آل كاشرين، هذا الشيء الذي يبدو وكأنه حذاء.. لقد خيل إلي...

وظلت تهذي وتتخبط في أقوالها؛ فقاطعها جدي هادرا، وهو يضرب الأرض بقدمه:

– أيتها الحمقاء الكاذبة إنك لا تستطيعين أن تري شيئا في حديقتنا. إن سورها من الارتفاع بحيث لا يتسنى لك ذلك. ليس ثمة شيء في حديقتنا أيتها الكاذبة.

– بل إنه الحق، ولا أنطق إلا صدقا. ومن ذا الذي يقدم على أقول غير الحق في موضوع مثل هذا؟ لقد اقتفيت أثر الأقدام حتى انتهت عند سور حديقتكم. ثم تطلعت عبر السور لأجده هناك..

– من هو؟ من هو؟

وظل يردد على مسامعها هذا السؤال غير مرة دون أن يسمع منها جوابا عليه. وفجأة رأيت الجميع يندفعون بجنون إلى الحديقة، كل يريد أن يسبق الآخر. وبجوار الحفرة، وتحت ركام من الثلج، كان يرقد بيتر وقد تدلى رأسه على صدره، ورأينا أسفل أذنه اليمني جرحا عميقا غائرا في عرض الفم، وقد تقطع لحمه وتدلى كالأسنان. جرح ينبئ عن محدثه

بالرجل، والذي ليس بأكثر من أسنان وحش كاسر مفترس.

ولم أستطع أن أحتمل أكثر من ذلك، وآثرت أن أغمض عيني، ولكن فضولي دفعني لأن أستطلع أكثر مما رأيت الأول وهلة، فأبصرت بمدية في يد الرجل اليمني، أما يده الأخرى فكانت مدفونة في الثلج، وكانت الجثة كلها ملتحفة في غطاء من الجليد، فبدت كطفل في مهده بين أغطيته البيضاء، وأصدر الشرطي أوامره بالمحافظة على آثار الأقدام.

وعلى حين غرة منا جميعا، انبرى جدى قائلا، بعد أن تأمل الجثة المسجاة على الجليد، وقد لمع فوقها صليب نحاسي ثمين، في صوت اهتزت نبراته غضبا:

- تأمل أيها الضابط وترى فيم كانت كل هذه الضجة التي تثيرها.. إنها يد الله.. إنها مشيئته وحكمه العادل، وأنت هنا تريد أن تبحث وتنقب وتأمر.. إن القاتل ليس من البشر!.

وقد أحدثت هذه الكلمات أثرها، فخيم الصمت على الحديقة، ووقف الجميع لا يحركون ساكنا. وأقبل الناس من كل حدب وصوب يستطلعون الأمر.

وعادت بي جدتى منتحبة باكية إلى المنزل؛ فسألتها:

- ماذا ارتكب؟

- ألم تر بعينيك؟

وقضينا ليلة لم تنقطع فيها الضجة عن البيت، شرطي يروح وآخر

يغدو، وتولى رجال الشرطة تحقيق القضية، وقدمت لهم جدتي أقداح الشاي، وإلى مائدة المطبخ جلس رجل وقور يتحدث قائلا:

– لم نهتد بعد إلى حقيقة اسمه، إنه من مواليد الأتما.. وهذا هو كل ما وصل إلى علمنا عنه. أما ستيفن الآخر؛ فاسمه مستعار، ولم يكن أبكم أو أصم. لقد عرفنا كل ذلك عنه، وأن لهما شريكا ثالثا لم نستطع أن نقتفي أثره بعد. كانوا يسطون على الكنائس لسلبها وسرقة نفائسها.

وسمعت بتروفنا تصيح مستنكرة وهي ترتعد فزعا:

– رباه.

وتأملتهم من مكاني، وجال بخاطري: كم تنطوي نفوسهم على ما هو أكثر إسفافا مما انطوت عليه نفوس هؤلاء الذين استمعنا لما اقترفوا من جرائم.

الفصل العاشر

وجدت متعة كبرى في مشاهدة تحليق الطيور، وكنت أحب الجلوس بين الأشجار أتأملها وهي تحط من فرع إلى فرع سعيدة منطلقة هانئة. وبعد أن نسيت نفسي في جلستي هذه، وشعرت ببرودة الطقس، وبأن أطرافي تكاد تتجمد، تسلقت سور الحديقة إلى المنزل، وأبصرت عند الباب الرئيسي رجلا يقود عربة كبيرة تجرها ثلاثة جياد تنضح عرقا، واستفسرت عمن يكون قد حضر معه. وبعد أن تأملني قليلا أجابني:

– الكاهن..

فدهشت ولم تقنعني إجابته. ولما لاحظ بوادر الحيرة على وجهي أمرني بأن أفسح له الطريق؛ فانتحيت جانبا، وأطلق لجياده العنان، ووقفت أتتبع العربة بناظري حتى غابت بين الحقول، ثم أغلقت الباب وتوجهت إلى المطبخ. وسمعت أول ما سمعت صوت والدتي المتهدج بنبراته التي لم أخطئها:

– والآن، ماذا تريد؟ أو تريد أن تقتلني؟

ولم أستطع أن أنتظر حتى أخلع ثيابى الخارجية المبللة، بل اندفعت إلى الدهليز حيث اصطدمت بجسدي الذي أمسك بي وحدجني بنظراته الجامدة وهو يقول لي بصوت أجش:

لقد عادت أمك.. اذهب إليها.. ولكن مهلا.

ثم أمسك بكتفي وهزني بقوة، قبل أن يطلقني قائلا:

– هيا..

وطرقت باب الحجرة، ثم رحت أتلمس قبضته قبل أن يفتح لي، وما أن دلفت إلى الحجرة حتى وقفت ببابها حائرا مرتبكا، وسمعت والدتي تقول صائحة:

ها هو أخيرا.

ثم تنهدت قائلة:

– يا لا السماء، لقد شب عن الطوق! ماذا بك؟ ألا تعرفني؟ ما هذا الذي ترتديه من ثياب؟ مالي أراك شاحب الوجه؟

وتقدمت مني تعينني على خلع ثيابي الخارجية المبللة وتلقي بها أرضا.. ولاحظت ما طرأ عليها من تغيير وكانت عيناها غائرتين وأكثر اتساعا لضمور وجهها، وكانت ترتدي ثوبا أحمر لم أر له مثيلا من قبل، وحدثتني قائلة:

– لماذا لا تتكلم؟ ألست سعيدا بلقائي؟

وراحت تدلك وجهي وعنقي، فأعادت الدماء إليهما مع أطرافي التي كادت أن تتجمد من شدة البرودة، وباقترابها مني ملأ أنفي عبق عبيرها الزكي، وقد بلغ بي تأثري من الموقف حدا لم أستطع معه كلاما، فألقيت بنفسي بين ذراعيها مسندا رأسي إلى صدرها ورافعا عيني إلى عينيها.. وسمعت جدتي تعلق شاكية:

– إنه طراز فريد.. ولم يستطع أحد أن يسلس قياده، ولم يكن ليخشى جده، أواه يا فارفارة!

– هلا توقفت يا أماه عن هذا العويل، بحق السماء. إنه لا يفيد في كثير أو قليل.

وكان كل شيء إلى جانب والدتي يبدو ضئيلا تافها عتيقا، حتى أنا كنت أشعر بأنني في عمر جدي، كانت تتفجر حيوية وشبابا. واحتضنتني وهي تعبث بخصلات شعرى قائلة:

– إنه بحاجة إلى من يرعاه بحزم وقوة، ولقد آن الأوان ليبدأ حياته المدرسية، أليس كذلك؟

– لقد تعلمت الكثير.

. ولكن هناك الكثير مما يجب أن تتزود به من العلم. يا إلهي! لقد ازددت قوة!

وراحت تلاعبني وتضاحكني. ولما دخل جدي الحجرة مكفهر الوجه، ينبعث شرر الغضب من عينيه، انتحت بي جانبا، وهي تقول له في لهجة متحدية مرتفعة النبرات:

– والآن ماذا تراك قررت يا أبي؟ هل تريدني أن أرحل؟

واتجه إلى النافذة حيث وقف ساكنا صامتا، يعبث بالثلوج المتراكمة عند قاعدتها. واشتدت أعصابى انتباها في هذه اللحظة الدقيقة من التوتر والانفعال، وأحسست بصدري يضيق مما به، وأنني أريد أن أطلق صرخة

مدوية تنفيسا عما يفيض به من مشاعر. وسمعت جدي يأمرني بصوت أجش:

– اترك الغرفة يا أليكسي..

فطوقتني والدتي بذراعها متسائلة:

– ولماذا؟ إنه لن يترك هذه الغرفة. استمع إلي يا أبي.

فاستدار إليها هادرا:

– لا أريد أن أسمع منك شيئا..

وفي هدوء المتمالكة لأعصابها قالت له والدتي:

– لست أقبل أن تحدثني بهذه اللهجة أو تصرخ في وجهي هكذا..

فنهضت جدتي من مجلسها، واقتربت من والدتي رافعه سبابتها في وجهها محذرة:

– وبعد يا فارفارة؟.

وبحث جدى له عن مقعد يستريح فيه، وسمعته يزمجر قائلا:

– صمتا.. يجب أن أعرف.. من هو؟ وكيف كان ذلك؟

وفي صوت هادر كالرعد صاح في وجه أمي يتهدد ويتوعد. وهنا أمرتني جدتي بالخروج من الحجرة، وصدعت بالأمر وتوجهت إلى المطبخ، حيث اتخذت لي مكانا يمكن أن أسمع منه كل شيء يدور في الغرفة، وكانت أصواتهم ترتفع حينا وتنخفض مرة أخرى ثم تتوقف فجأة، ليخيم على

الغرفة سكون مطبق.. ولم أدر شيئا عن السبب الحقيقي لثورة جدي، ولم أستطع أن أتبين حقيقة الباعث على غضبه.

وعاد جدي إلى المطبخ مرهق الأعصاب منهوك القوي مكفهر الوجه، وأقبلت جدتي في أعقابه تجفف دمعها. وجلس جدي مطرقا، وأقبلت عليه جدتي جاثية مستعطفة، فابتعد جدي عنها قليلا، وهو يحدجها بنظرات قاسية قائلا:

– هكذا؟!

ثم ضحك مرارة مستطردا:

وماذا بعد؟ لو ترك الأمر لك لصفحت عن العالم كله؟

وبعد قليل واصل كلامه بصوت كفحيح الأفعى قائلا:

– الغفران؟ إنه ليس من شأني. فها نحن وقد اقتربت نهايتنا يضن علينا القدر بالهدوء والحياة الوادعة التي يجب أن تكون لأمثالنا من الشيوخ. لقد حرمنا السعادة في الماضي والحاضر. وما أظننا سنرى شيئا منها في المستقبل، بل وإنني لأرى أمامنا مستقبلا من الحرمان والفاقة أكثر مما نتصور.. أجل، فسينتهى بنا الأمر إلى التسول، والتسول هل فهمت؟ إنها لعنة الأبناء على الآباء وليست لعنة الآباء على الأبناء كما يقال!

فنهضت جدتي، وأخذت بيده بين يديها، واستقرت إلى جانبه ضاحكة، وهي تقول:

– أهذا ما يقض مضجعك ويشغل بالك، أن تصبح متسولا؟ فليكن. إذا كان هذا هو ما قدر لنا فلا عليك من هذا، أقوم أنا بهذه المهمة، وتنتظرني أنت بالمنزل. إنني لن أعدم أن أجد من يعطف علي ويرق قلبه لي. لا عليك من هذا، دع الأمر لي.

واستغرق في الضحك حتى كاد أن يستلقي على قفاه، ثم طوقها بذراعه قائلا:

– أيتها الحمقاء.. أيتها الحمقاء المباركة. إنك كل ما تبقى لي وأعتز به من هذه الحياة، ولكن فكرى معي واستعيدي الماضي.. لكم شقينا في سبيلهم، ولكم ارتكبت من أخطاء في سبيلهم، ثم أهذا هو ما انتهينا إليه وما صاروا هم إليه وما كان من شأنهم جميعا!

وعندئذ، غلبتنى مشاعري على أمري، وفاضت الدموع من عيني، وانطلقت من مكاني أعدو إليهما، وقد اختلطت دموع الأسى بدموع الفرح. دموع الأسى إشفاقا عليهما، ودموع الفرح لهذا التفاهم الذي رأيته يسود بينهما لأول مرة في حياتهما، وعجبت لهذا التفاهم والتعاطف الذي نتج عن عودة والدتي، واحتضناني واختلطت منا الدموع، وسمعت جدي يقول لي:

– أيها القرد الصغير لقد عادت أمك ولن نراك إلا في ذيلها كظلها، ولن يعنيك من أمر جدك شيئا، ولا من أمر جدتك بعد كل ما قامت به من أجلك! بخ لك!

ونهض بعد أن دفعنا بعيدا عنه قائلا في أسى:

– إنهم جميعا يهجروننا ويعرضون عنا.. اذهب وادعها.. ماذا تنتظر؟...

وخرجت جدتي من المطبخ، وأطرق جدي برأسه داعيا ربه:

– إلهي الرحيم.. إنك ترى ما صرنا إليه من هوان.

وأقبلت والدتي بثوبها الأحمر وأزراره السوداء، وجلست بين جدي وجدتي، وراحت تحدثهما في صوت رزين هادئ، وهما مصغيان إلى ما تقول كما يصغي الطفل إلى والديه دون مقاطعة أو تعقيب.

ونال مني التعب، وغفوت على الأريكة حيث كنت أجلس، ولما صحوت وجدت الهناء يسود جو البيت لأول مرة، وأبصرت جدتي تهمس في أذن والدتي التي ضحكت لما كانت تقوله لها

ولما انفردت والدتي أخيرا بي في غرفتها، دعتني للجلوس إلى جانبها على الأريكة قائلة:

– والآن فلتصارحني، هل يطيب لك المقام هنا؟

– لست أدري!

– هل كان جدك يضربك؟

– أحيانا..

– صارحني بكل شيء. خبرني بكل ما تريد أن تحدثني عنه.

ولم أود أن أجعل من جدي محور حديثنا، ورحت أحدثها عن شاغل الحجرة السابق، الذي كان مكروها من الجميع. ثم رحت أحدثها عن

أصدقائي الثلاثة وما كان من أمر والدهم الكولونيل معي، واستشاطت غضبا عندما سمعت باعتدائه علي ومطاردته لي، ثم أطرقت برأسها مستغرقة في أفكارها في صمت وسكون.

سألتها:

– لماذا كان جدى ثائرا ضدك؟

فجزعت لسماعها هذا مني. وقطبت جبينها وهي تعض على شفتيها. ثم ضحكت وهي تضمني إليها قائلة:

– أيها الشيطان الصغير. ولا كلمة عن هذا الموضوع! يجب أن تطبق شفتيك ولا تنبس بحرف مما سمعت، هل فهمت؟ انس كل ما سمعته عن هذا الموضوع ومن ذاك الحديث.

واستطردت تسرد على مسامعي أمورا لم أستطع أن أدرك لها كنها، وكانت تتكلم في هدوء يتفق مع شعورها بجدية ما تقول. ثم نهضت تذرع الغرفة في قلق باد وعصبية لم تخف عني، وأخيرا سألتني.

– متى تأوي إلى فراشك؟

– ليست بي رغبة للنوم.

– آه، لأنك غفوت قليلا.

– فيم تفكرين؟ هل تفكرين في الرحيل؟

– إلى أين؟

وبدت على وجهها علامات الدهشة والانفعال، ثم رفعت رأسها وتأملتني طويلا قبل أن تقول:

– ماذا بك؟!

– أحس بألم في عنقي.

وكان مصدر الألم هو قلبي، لأنني كنت أشعر في قرارة نفسي بأن إقامتها بيننا لن تطول.

إنك تزداد شبها بأبيك. ألم تخبرك جدتك بشيء عنه؟

بلى.

لقد كانا متفاهمين.

أعرف ذلك.

ووجدتها تتأمل الشمعة الموقدة مقطبة جبينها، ثم أطفأتها قائلة:

هذا أحسن.

وقد كان ما رأت، فبدت الحجرة في ضوء القمر النافذ إليها هادئة حالمة..

– أين كنت تقيمين عندما كنت بعيدة عنا؟

وذكرت لي أسماء بعض المدن، وكأنها تستعيد ذكريات أصبحت في طي الماضي، وكانت تذرع الغرفة طولا وعرضا، كصقر حبيس في قفصه.

– أنى لك هذا الثوب؟

– أنا الذي أعددته لنفسي. إنني أعد كل ثيابي بيدي.

كنت أريد لأمي أن تكون مختلفة عن غيرها، ولكن ليس إلى هذا الحد الذي أراها عليه، فما كانت لتفتح فمها بكلمة إلا نادرا. وبعد قليل عادت لتجلس إلى جانبي، ومكثنا في مجلسنا هذا طويلا، وقد التصق كل منا بالآخر في صمت وسكون.

ومرت الأيام، وقد عنيت فيها والدتي بتعليمي الروسية، واستطعت أن أقرأ الكتب التي ابتاعتها إلي بعد بضعة أيام. وكانت والدتي تصر على أن أحفظ بعض المقطوعات عن ظهر قلب.. وكنت إذا ما أعدت تلاوتها على مسامعها أضع كلمة بدل أخرى، فإذا ما راجعتني في ذلك عدت لترديد النص الصريح، مما كان يجعلها تستشيط غضبا وتدرك أنني تعمدت ذلك.

وانتقلت والدتي من النثر إلى الشعر، ولاحظت أنني كنت أتعمد استبدال كلمة بأخرى أيضا، مما كان موضوع حديث طويل بين جدي وبين والدتي، رأى فيه جدي أن الأمر يرجع إلى تعمدي ذلك وليس إلى ضعف ذاكرتي. وتدخلت جدتي تحاول أن تقنعني بالعدول عما تعمدته من خروج على نصوص القصائد الشعرية والمقطوعات النثرية. وحدث أنني كنت إذا لم أخرج على النص، فقد كنت أعمد إلى إضافة بيت أو بيتين إلى بعض الفقرات الشعرية.

ونبهتني جدتي إلى ضرورة الإقلاع عن هذه العادة، لأن جدي يتربص بي:

– ويكفي والدتك ما هي فيه من متاعب!.

– أية متاعب؟!

– لا عليك من هذا. إنها أمور يصعب عليك إدراكها.

وبدأت أتحقق يوما بعد يوم من أن والدتي تضيق ذرعا بحياتها في بيت جدي.. وبدأت أشعر بأن هذا الخاطر يجثم على صدري ويقض مضجعي. وكنت أراها جالسة الساعات الطوال إلى النافذة تتطلع منها في سكون وصمت شاردة الفكر، كما لاحظت أنها بدأت تذبل ويذهب عنها بهاؤها ورواء حسنها. وأصبحت سريعة الغضب، ساهمة شاردة الفكر، وقد آلمني ذلك منها، لأنني عرفت مما سمعته من قصص أن الأمهات يجب أن يكن أكثر رقة مع أبنائهن من سائر الناس جميعا! وكنت أصارحها من حين لآخر:

– إنك غير راضية عن إقامتك هنا.

وكانت تنفجر غضبا وهي تزجرني:

– ليس هذا من شأنك.

وألحت على خاطري فكرة أن جدي يتعمد أن يثير القلق في نفس والدتي وجدتي؛ فطالما كان ينفرد بوالدتي، وأسمع صياحه وعويله. وكنت أسمع صوت والدتي، صائحة محتجة، ضاربة الأرض بقدمها عندما يتوقف جدي عن ترديد كلامه رافعة عقيرتها:

– كلا لن أفعل ذلك.

وإذا بالباب يصفق بشدة ويخرج جدي من حجرتها نادبا حظه.

وكان هذا يجرى ليلا، بينما تكون جدتي بالمطبخ منشغلة ببعض شئون المنزل، وما أن يصفق الباب حتى يسرع جدي إلى المطبخ حيث يدور بينه وبين جدتي نقاش طويل حاد لا أدرك كنهه. وفي هذه الليلة بالذات اشتد بينهما الجدل – بين جدي وجدتي – وحتى بلغ بهما حد الاعتداء بالأيدي، وغلت الدماء في عروقي ورحت أقذف جدي بكل ما وصلت إليه يدي، ولكنه لم يعرني التفاتا وخرج من المطبخ إلى غرفته لا يلوي على شيء!

وكانت جدتي قد سقطت على الأرض أثناء المعركة التي كانت دائرة بينهما، ونهضت بعد انصرافه تصلح من شأنها وتقول لي:

– أعد كل شيء إلى مكانه. لم فعلت ذلك؟ ليس هذا من شأنك وإن الرجل قد فقد عقله. هذا الأحمق.

وناشدتني ألا أخبر والدتي بشيء مما حدث:

– إن مجرد علمها بأنه يعتدي عليّ بالضرب، سيزيد الأمور تعقيدا ويضاعف من سوء العلاقات بينهما. عدني بذلك؟

– أعدك!

– لا تنس وعدك، والآن لنعد كل شيء إلى حالته الأولى.

وقامت تعيد للمطبخ نظامه الذي كان عليه قبل المعركة؛ فقلت لها:

-إنكقديسة،مافيذلكشك،أوتتحملينكلهذاالعذابولاتفتحينفمكوتحرصين علىعدمجرحشعورابنتكوعدمتعقيدالأموربينهاوبينأبيها؟إنهذامنخلقالقديسات.

– أو التقيت بإحداهن؟!

وراحت تتمتم بما لم أتبينه. واستغرقت بدوري في التفكير في كيفية الانتقام لها من جدي؛ إذ أنني لم يسبق أن رأيته من قبل يسيء معاملتها إلى هذا الحد. وكنت كلما استعرضت ما كان منه ازددت حنقا عليه.

وبعد ذلك ببضعة أيام، دخلت غرفته أحمل له بعض حاجياته؛ فوجدته جاثيا بجوار صندوق مفتوح ينقب بين أوراقه، ووجدت على مقعد بجواره تقويمه المحبب لديه، والذي يعتز بما فيه من صور القديسين الأبرار الذين سمعت الكثير عن قصصهم وعن أنباء استشهادهم وتضحياتهم.

وعقدت العزم – في تلك اللحظة – على تمزيق هذا التقويم إربا، وانتهزت فرصة اتجاه جدي صوب النافذة ليطالع ورقة على ضوئها، وفصلت بعض صفحات التقويم، وخرجت عدوا إلى الطابق الأرضي وتناولت مقص جدتي وشرعت في قص رؤوس القديسين وإفساد صورهم. وبعد أن انتهيت من انتقامي وقع نظري على جدي على باب الحجرة صائحا في صوت كالرعد:

– من صرح لك باختلاس تقويمي؟

وما أن رأى قصاصات الورق على المنضدة، حتى بدأ يلتقطها ببدين مرتعدتين وأنفاس لاهثة مرددا:

– ماذا فعلت؟

ثم أمسك بساقي وطرحني أرضا، وأسرعت جدتي إلي تحميني من

غضبه، فدفعها بعيدا وهو يقول:

- سأقتله.

وفي هذه اللحظة أقبلت والدتي، وساعدت جدتي على إبعاد جدي عني قائلة:

- تمالك نفسك.. لا يجمل برجل في سنك أن يتصرف هكذا..

فألقى جدي بنفسه على قاعدة النافذة رافعا عقيرته صائحا:

- إنكم تتآمرون على قتلي.. إنكم جميعا ضدي.. كلكم.

- ياللعار! يا له من مشهد.

هكذا كان تعليق والدتي على سلوك جدي امتعاضا وازدراء.. ولم يتوقف جدي عن صياحه وعويله وشكواه، وسمعت والدتي تقول له لتهدئ من ثورته:

سأقوم بإعادة لصق الصور وسأعيد إليك تقويمك أحسن مما كان..

وكانت تحدثه بلهجة الأمر كما كانت تحدثني وهي تلقنني دروسا. وأقلع جدي عما كان يهدر به ويزمجر قائلا:

- فليكن علي أن يتم هذا اليوم، وسآتيك بسائر الصفحات!

وتوقف عند الباب رافعا سبابته نحوي وهو يقول:

- على أن ينال جزاءه على ما جنت يداه فورا..

فأجابته والدتي:

- بكل تأكيد..

ثم التفتت إلي مستفسرة:

- لماذا فعلت ذلك؟

- لقد تعمدت هذا حتى لا يعود إلى الاعتداء على جدتي، وبودي لو استطعت أن أفعل أكثر من ذلك.

وانبرت جدتي قائلة:

- صمتا ولا تنس وعدك.

فسألتني والدتي:

- ومتى كان اعتداؤه عليها؟!

- والآن يا فارفارة. ألا تخجلين من استجواب ابنك؟ ليس هذا من شأنك.

فاتجهت والدتي ناحيتها تضمها إليها قائلة:

- أيتها الأم المثالية.

- هيا، هيا دعيني وشأني. دعي أمك المثالية وشأنها.

وفي صمت تبادلت أمي وجدتي نظرات تفيض معنى وأسى، دون أن تنطقا حرفا واحدا، فقد كان جدي في الدهليز يذرعه قلقا في انتظار أن تبر والدتي بوعدها بإصلاح التقويم.

* * *

وكانت والدتي عقب عودتها إلينا مباشرة، قد وطدت علاقة صداقتها

بزوجة الجندي الشابة، وكانت تتبادل معها الزيارات في كل مساء، وتختلطان معا بآل بثلينجا وضيوفهم من السيدات الجميلات وأصدقائهن الضباط. ولم يكن جدي مرتاحا لهذا الاختلاط والتزاور، وسمعته يحذر والدتي من مغبة هذه الزيارات. وما كان منه إلا أن أمر الجندي وزوجته بإخلاء سكنيهما معلنا أنه ليس بحاجة إلى نزلاء جدد.

وبدأت أرى في بيتنا هؤلاء الزائرين في أيام الآحاد وغيرها من أيام الأعياد الدينية، ولم يكن هؤلاء غير شقيقة جدتي ماترينا وولديها بازيل وفيكتور، وكان ينضم إلى هؤلاء الخال جاك بقيثارته ومعه صديقه الساعاتي الذي كان يذكرني مرآه بأحد القردة.

ولاحظت التقارب بين جدي وبين هذا الساعاتي، بعد أن تكررت هذه الأمسيات. وبعد ثلاث أو أربع زيارات أبصرت بهما يتهامسان ويرمقان والدتي بنظراتهما، حيث كانت تجلس بجوار الخالة ماترينا.

* * *

وبعد صلاة الأحد، بعد أن تكررت زياراته الليلية في آحاد سابقة، ظهر صاحبنا الساعاتي في وضح النهار، فقد كنت مع والدتي في غرفتها أساعدها في بعض شئونها، عندما فتح الباب على مصراعيه، واندفعت منه جدتي فزعة وهي تقول:

إنه هنا يا فارفارة!.

ثم عادت أدراجها مسرعة كما أقبلت. ولم تحرك والدتي ساكنا، وفتح الباب ثانية ليدخل منه جدي قائلا:

– هيا. ارتدي ملابسك يا فارفارة، يجب أن نذهب الآن.

وظلت مكانها دون أن تلتفت إلى ناحيته متسائلة:

– إلى أين؟

– أناشدك الله ألا تجادليني في الأمر! إنه رجل هادئ رزين، وسيكون خير أب لأليكسي.

وفي هدوء أجابته والدتي:

– قلت لك أن هذا لا يمكن أن يكون.

فتقدم جدي منها، وقد مد ذراعيه أمامه قائلا:

– هل ستأتين معي؟ أم اضطرك إلى ذلك قسرا؟

– هكذا تهددني لترغمني!

ونهضت تنضو عنها ثيابها إلا من قميصها الداخلي، ثم قالت له:

– هيا، فلتأخذني إليه قسرا!

فرفع قبضته في وجهها مهددا:

– بربارة، ارتدي ثيابك فورا!

فدفعته والدتي من طريقها، واتجهت إلى الباب واضعة يدها على مقبضه وهي تدعوه قائلة:

– هيا بنا، ألست قادما..

– ألا لعنة الله عليك

وفتحت والدتي الباب على مصراعيه مكررة دعوتها:

– هيا بنا!. فيم انتظارك؟

ورأيت جدي يجثو على ركبتيه ضارعا:

– بربارة.. أيها الشيطان، ماذا تريدين بنا؟ أو تريدين أن تنزلي بنا الخراب؟ ألا تخجلين من نفسك؟

ثم صاح ينادي جدتي، وكانت جدتي قد أقبلت مسرعة تدفع والدتي إلى داخل الغرفة؟

– أيتها المجنونة! أولا تعرفين ما هو الخجل؟ إلى أين تذهبين هذه الثياب الداخلية؟ هيا إلزمي غرفتك!.

وبعد أن أغلقت جدتي الباب وأحكمت رتاجه، اتجهت حيث كان جدي، وأخذت بيده لينهض قائلة:

– وأنت، أيها الشيطان العجوز!

وما أن استقر على الأريكة، حتى انهار كلية، دون أن ينطق بحرف أو يحرك ساكنا. والتفتت جدتي إلى والدتي تأمرها:

وأنت، فلتسرعي بارتداء ثيابك

ولكنني لن أذهب إليه، هل فهمت؟

ولم تعقب جدتي على ما سمعته منها، بل التفتت إلي آمرة في صوت هادئ:

– وأنت، أسرع وائتني بقليل من الماء.

وأسرعت لأنفذ ما أمرتني به، ووصل إلى سمعي وأنا بالمطبخ جائس إلى نافذته وكأني في معلم صوت وقع أقدام ثقيلة تذرع غرفة الضيوف، بينما كنت أسمع والدتي صائحة:

سأذهب عنكم غدا! إنني لا محالة راحلة من هنا!

وسمعت جدي يصيح شاكيا، وجدتي تتمتم مزمجرة، ثم سمعت بابا يصفق، ساد بعده سكون مطبق. وتذكرت أنني قد نسيت ما كنت قادما من أجله فقمت آتي بقليل من الماء في إحدى الأواني النحاسية، ولما خرجت إلى الردهة أبصرت الساعاتى خارجا من حجرة الضيوف، وقدأطرق برأسه وأمسك بثنايا معطفه. وانطلقت جدتي في أعقابه تقول له لتسري عنه:

– إنك تدرك حقيقة الموقف. إن ود القلوب لا يمكن أن يتصل قسرا إنه شعور متبادل يأتى عفوا!.

وبعد أن توقف قليلا عند باب المنزل، خرج إلى ساحته. ورأيت جدتي ترفع عينيها إلى السماء، وقد اكتسى وجهها بخليط من بوادر المر والأسى؛ فعدوت إليها متسائلا:

– ماذا جرى؟!

فانتزعت وعاء الماء من بين يدي قائلة:

– وأخيرا أتيتني به؟.. أغلق الباب جيدا.

الفصل الحادي عشر

وفيما بعد تولت والدتي زمام الأمور، وكانت لها الكلمة العليا في المنزل، وانسحب جدي من الميدان، ولم يعد يتدخل في أمر أو يشغل نفسه بشيء. وقلما كان يترك غرفته، حيث كان يقضي معظم وقته في القراءة. وكان في معاملته لوالدتي أكثر رقة عن ذي قبل، ولكنه كان لا يكثر من الاتصال بها في غالب الأحيان. فإذا ما اضطرته الظروف إلى ذلك، كنت أسمعه يقول لها:

– كفاك إيضاحا. افعلي ما تشائين!

وانتقلت والدتي إلى أحسن حجرتين بالمنزل، حيث كانت تستقبل الكثيرين من صديقاتها وأصدقائها. وكان آل ماكسيموف هم أكثر هؤلاء ترددا لزيارتها: بيتر الضابط الوسيم، ويوجي الفارع الطول النحيف.

وكان أسبوع عيد الميلاد حافلا بالاستقبالات وبالسهرات التي كانت والدتي تذهب إليها، ويعود البيت إلى سكونه الموحش، وبعد عطلة عيد الميلاد ألحقتني والدتي بالمدرسة مع ابن خالي مايك، وكان مايك قد تزوج وضاقت زوجه ذرعا بولده، وكان يناله منهما الكثير من سوء المعاملة، مما آثر معه والده أن يلحقه بالمدرسة بعدا به عن جو المنزل الذي لم يصبح ملائما له بعد مقدم زوجة أبيه.

وواصلنا دراستنا بادئ ذي بدء حوالي الشهر، ولا أذكر أنني تعلمت

شيئا جديرا بالذكر، ولم يكن بي ميل للدراسة، أو رغبة في البقاء بالمدرسة. وعلى العكس من ذلك كان ابن خالي حتى كان يوم غلبه النعاس على أمره في قاعة الدرس، وسمعناه يصيح:

– لن يكون ذلك!

واستيقظ مذعورا، واندفع منصرفا دون أن يرعى حرمة لتقاليد المدرسة، تشيعه ضحكات الزملاء. وفي اليوم التالي، ونحن في طريقنا إلى المدرسة، توقف عن مواصلة السير قائلا:

– اذهب أنت.. لن أذهب معك.

ورأيته يدفن كتبه في الثلوج المتراكمة، ثم يطلق ساقيه للريح، وكنا في يوم من أيام يناير التي يصفو فيها الجو وتحلو فيها الرياضة واللهو، وحسدت ابن خالي على جرأته. وكدت أحذو حذوه ولكنني راجعت نفسي وقررت ألا أغضب والدتي، فواصلت طريقي إلى المدرسة. وبحثنا في اليوم التالي عن كتب ساشا فلم نجدها، وكان هذا سببا جديدا يتعلل به لعدم الذهاب إلى المدرسة. وفي اليوم الثالث انكشف أمره، ونصب جدي له الميزان، وكانت مناقشة طريفة بينهما حول مائدة الطعام بالمطبخ.

– لماذا لم تذهب إلى المدرسة؟

– نسيت موقعها؟

– نسيت ماذا؟

– حاولت أن أحدده فلم أوفق.

– ولكنك كنت بمرافقة أليكسي، وهو يعرف الطريق إليها!

– بحثت عن أليكس فلم أجده.

– بحثت عنه؟ وكيف كان ذلك؟

– هذا ما حدث!

– كيف؟

وتمهل ساشا قليلا، ليعطي نفسه فرصة للتفكير، ثم قال:

– كانت الثلوج تتساقط فلم أستطع الرؤية.

ولم يجدوا جميعا بدا من الابتسام، وفيهم شاسا نفسه، واستعاد جدى تقطيبه قائلا:

– ألم يكن بوسعك أن تمسك بيد أليكسي؟

– فعلت ذلك، ولكن الرياح دفعتني بعيدا عنه.

وعجبت من إصراره على هذا الكذب المكشوف، ولم يجد شيء من ذلك كله، وتلقينا ما قسم لنا من ضرب وركل، وعهد بنا إلى جندي سابق ليتكفل بالذهاب معنا إلى المدرسة من الباب للباب، ولم يجد هذا مع ابن خالي الذي كان يسرع هاربا من حارسنا بمجرد اقترابنا من باب المدرسة منتزعا نفسه من قبضة يده.

وخرج جدي وجدتي ووالدتي في هذا اليوم يبحثون عن شاسا في المدينة، حيث عثروا به مختبئا في إحدى الحانات يعرض رقصاته على

المترددين عليها. وعادوا به إلى المنزل، واستلقى إلى جوارى هامسا:

– إن أحدا لا يهمه أمري، لا زوجة أبي ولا حتى أبي أو جدي، فلماذا يرغمونني على الإقامة معهم؟ سأسأل جدتي أن تخبرني بمكان إقامة رجال العصابات لأنضم إليهم.. لماذا لا تنضم إلي ونهرب معا؟

ولم يصادف هذا الاقتراح قبولا لدي. إن لى مشروعاتي التي تتعارض مع خطته. إنني أريد أن أصبح ضابطا، والمدرسة هي الطريق إلى ما أبغي، وكاشفته بدخيلة نفسي، فأقرني على وجهة نظرى قائلا:

– إنها فكرة لا بأس بها، فما أن تصبح ضابطا، حتى أكون أنا قد أصبحت رئيسا لإحدى العصابات، وستتطلب منك واجبات وظيفتك أن تتعقبني، مما يستتبع أن يواجه أحدنا الآخر، فإما أن أقتلك وإما أن تلقي القبض علي، ومهما يكن من أمر فإنني لن أقتلك!

– ولا أنا!.

وهكذا تم الاتفاق بيننا. وأقبلت جدتنا تجلس في مواجهتنا قائلة:

– كيف تفعل هذا أيها الفأر الصغير؟ يالليتيمين المسكينين.. لكما الله يا حفيديَّ!

وانتقلت تنعي على زوجة أب شاسا معاملتها القاسية له، مقررة أن هذا هو شأنهن جميعا من أبناء أزواجهن، ضاربة الأمثال بكثير من الحالات والقصص.

وفي صباح اليوم التالي: ظهرت علي عوارض حمى الحصبة، ونقلت إلى غرفة السطح، حيث قضيت فترة طويلة ملازما الفراش، وكانت جدتي وحدها التي تعنى بأمري وتأتيني بالطعام وتقوم على خدمتي ليل نهار.

وحدث في فترة نقاهتي أن تأخرت جدتي عن المجيء في موعدها، وطال بي انتظاري لها. ونهضت لأتحرى الأمر، فوجدتها خارج غرفتي مستلقية على وجهها لا تحرك ساكنا، فتملكني الفزع وقفزت من النافذة إلى أرض الساحة التي كانت تغطيها الثلوج، بعد أن حطمت زجاجها. وتحسست جسدي ، بعد أن ظللت مستلقيا في مكاني فترة ليست بالقصيرة، وتحققت سلامة عظامي، وإن كان الزجاج المحطم قد أصابني بجراح عديدة. ولاحظت أن أحدا لم يخف إلي، ولم يسمع صوت تحطيم النافذة لأنهم كانوا عنا لاهين بسمرهم واستقبال ضيوفهم.

ورقدت في فراشي، من جراء هذا الحادث، ثلاثة أشهر طوال، حل فيها الربيع، وبدأت أنعم من فراشي بكل ما فيه من جمال وبهجة، وأستمع لما يسود بيتنا من جلبة الضيوف وضجيج الحفاوة بهم.

ولما استعادت جدتي صحتها بعد قليل، وعادت تواليني بزياراتها، كنت ألاحظ أن رائحة الخمر تفوح من فمها، وأن هذه الرائحة كانت تشتد يوما بعد يوم، ثم لم تعد تجد حرجا في أن تأتي بها في أبريق الشاي الكبير الذي كانت تخفيه تحت فراشي قائلة وهي تغمز بعينها:

– إنك لن تخبر جدك بشيء عن هذا، أليس كذلك؟

– ولماذا تحتسين الخمر؟

– آه.. أمامك الكثير من الأشهر والسنين حتى تفهم الإجابة عن سؤالك هذا.

وبعد أن يستقر بها المقام، تسألني عما أريد من قصص في هذه الليلة، فأجيبها:

– عن والدي!.

– من أين أبدأ؟

وأحدد لها ما انتهت عنده في الليلة السابقة، فتنطلق في قصصها لا تتوقف، في صوت متسق النبرات منسق الكلم. وقد بدأت روايتها عن والدي، في يوم جاءتني عصبية المزاج مجهده في أثر ليلة مؤرقة مسهدة، قائلة:

– لقد رأيت والدك في أحلامي، رأيته يمشي بين الحقول مرسلا لنا من بين شفتيه، وإلى جانبه كلب يلهث. ولم تكن هذه هي أول مرة أراه في أحلامي أخيرا. لست أدري السبب في ذلك. لعل روحه قلقة في هذه الأيام.

ثم بدأت تحكي الكثير عن والدي، وكانت تستأنف قصتها في كل أمسية من حيث انتهت. واستطعت بذلك أن ألم بتاريخ حياة والدي، صغيرا وكبيرا، وعرفت مما عرفتني أنه ولد في سيبيريا لوالد من الضباط المنفيين لشدة قسوتهم. وقد توفيت والدته وتركته طفلا، وتوفي والده وتركه في سن التاسعة صبيا صغيرا، وعرفت أنه بعد أن شب عن الطوق وتعلم مهنة النجارة وبرع فيها تعرف بوالدتي عندما كان جارا لها، وتدله في حبها،

وسارع إلى طلب يدها. ثم ما كان من معارضة جدي الذي كان ينعم في الثراء حينئذ، وكيف انتهى بوالدي الأمر إلى الزواج بوالدتي، بعد أن فرا هاربين إلى الكنيسة، ومحاولة جدي اللحاق بهما هو ومايك في عربته، وما ألهمت به جدتي لعرقلة سيرهم، مما أجدى أخيرا ودخل جدي الكنيسة فوجدهما بين يدي الكاهن الذي كان قد أتم إجراءات عقد الزواج.

وعلمت منها فيما علمت، بما كان بين والدي وبينهم من شجار عند باب الكنيسة، وانتصار والدي بفضل قوته وشبابه. كما علمت منها بما كان من سلوك والدي في أثناء المعركة إزاء جدي، وحرصه على عدم الاعتداء عليه أو مسه بشيء، بالرغم من أنه كان في حالة دفاع عن نفسه. وقد أكبرت والدي لتصرفه هذا، كما أكبرته الأشياء أخرى كثيرة كشفت عن حقيقة خلقه وكريم سجاياه. وانتهى الأمر بأن حرمت والدتي بائنتها، بعد أن أعلنها جدي بالقطيعة بينهما إلى الأبد.

– إن كل شيء يا بني بمقدار، وما قدر يكون. وأعلنني جدك مهددا بأن أضع في اعتباري ما حييت أن ابنتي غير موجودة على الإطلاق!

واستمعت إلى كل هذا وغيره من تفاصيل عن حياة والدي وما مضى من أيامه مع والدتي بكل حواسي ومشاعري. وقصت عليّ كيف أنها سعت إلى والدي ووالدتي بعد ذلك، وحاولت أن تمد لهما يد المساعدة، وكيف رفض والدي في إباء وشمم ما كانت تتقدم به جدتي إليهما، وكيف انضمت والدتي إلى زوجها، مما أغضب جدتي وأثارها.

– ترى من أكون بالنسبة إليكما؟ إنني أمك يا فارفارة، وأنت قطعة من

لحمي ودمي، وأنت أيها الأحمق إنك ولدي، من اختارته هذه القطعة مني ليشاركها في الحياة!

واستطردت تسرد على مسامعي ما كان بينها وبين والدي بعد ذلك من تفاهم ومودة، وكيف ظلت ترعاهما عن كثب حتى اقترب يوم مولدي:

– وكان جدك يعلم بأنني أراهما خلسة، ولكنه كان يتجاهل ذلك، وكان قد حرم علينا ترديد اسمها في البيت، ولكنني كنت واثقة أنه في قرارة نفسه غير مرتاح لكل هذه الأوامر.

وفي ليلة عاصفة اشتدت فيها رياح الشتاء بزمهريرها القاسي، لم يغمض لنا جفن، لا جدك ولا أنا. قلت له ونحن نتقلب في فراشنا:

– إنها ليلة قاسية على الفقراء وهي أشد قسوة على من لا يهدأ لهم بال، وأسمعه يقول بعد فترة صمت وجيزة:

– ترى كيف حالهما؟ هل هما بخير؟

– من تعني؟

– ابنتنا فرفارا، ومكسيم زوجها؟.

– كيف عرفت أنني أعنيهما؟ دعك من هذا، وأقلع عن عنادك الأحمق ترى ماذا تجني من وراء ذلك؟! أواه منك أيها الشيطان العجوز!.

وراح يتحدث عن والدك قليلا، ثم سألني:

– سمعت عنه أنه رجل أحمق، فهل هذا صحيح؟

– إن الأحمق، هو الرجل الذي لا يضطلع بنصيبه في الحياة. هو الرجل الذي يعتمد على غيره، ويلقي بحمله على كاهل الآخرين، كولدينا مايك وجاك، إنك أنت الذي تشقى وتنصب، وهما ينعمان بثمار جهدك وتعبك ناعمين هادئين، ترى أي نفع يرجى منهما؟

ويجيبني بسيل من اللعنات التي يصبها علي وعلى كل من يتصل بي. ثم ينعي على ثقتي بهذا المخلوق الذي لا نعرف عنه شيئا، وأجد أن في التزامي جانب الصمت خيرا لي ولهما، وبعد أن يفرغ من إلقاء ما في جعبته، أقترح عليه في هدوء:

– لماذا لا تذهب لزيارتهما؟ إنهما بخير.

– إنه شرف لا يستحقانه! فليحضرا هما لزيارتنا!!

وكدت أصيح فرحا، ولم أدر ماذا أفعل من فرط سروري! وسمعته يقول لي وهو يداعب خصلات شعري:

– أو كنت تحسبين أن لا قلب لي؟.

وإنك لأدرى بأن هذا الرجل متقلب متغير الأطوار متباين الطباع، فهو أحيانا طيب عاقل رزين، وأخرى دعي سيئ الطباع شرير.

وفي يوم العطلة التالي لهذا الحديث، أقبل والداك في أحسن زينتهما، ووقف والدك بقامته الجديدة مرفوع الرأس أمام جدك قائلا:

– أريد أن تعرف أنني لم أحضر إلى هنا سعيا وراء بائنة أو منفعة. لقد جئت لأقدم ما يجب علي من احترام لوالد زوجتي.

فسرى عن جدك وقال ضاحكا:

– أيها الشقي! أين تعلمت فن القتال؟ فليكن.. دعنا من الماضي بكل ما فيه. لماذا لا تأتي لتعيش معنا؟

فقطب والدك جبينه قائلا:

– الأمر لبربارة. إنني رهن مشيئتها!.

ومن هنا بدأ الخلاف أو عدم الانسجام بينهما. والدك بصراحته وقوة شخصيته، وجدك بحب سيطرته وأسلوبه القديم يريد أن يأمر فيطاع. ولطالما كنت أحاول أن أثني والدك عما يصر عليه من سلوك وينتهجه من سياسة، ولكنه كان يتجاهل نصحي وتوجيهاتي. وكنت أحبه وأنزله من قلبي مكانا ممتازا، وكان يعرف ذلك جيدا ويبادلني نفس شعوري. وكنا سعداء – نحن الثلاثة – بهذا الود الصافي وتلك المحبة المتبادلة بيننا. ولكم قضينا معا، أنا وهو وبربارة، أسعد الأوقات في لهو وعبث وسرور.

واستقرا معنا في السكن الملحق بالحديقة، حيث ولدت ظهرا ولما عاد والدك لتناول طعام الغداء في هذا اليوم، كنت قد وفدت إلى الدنيا لتستقبله، ويتلقاك على ذراعيه فرحا بك، ثم يذهب إلى جدك ينبئه بالأمر.

ولم يكن والدك محبوبا من خاليك. كان لا يجاريهما في الشراب ولا في غير ذلك من سلوك لم يكن ليتفق مع ما فطر عليه من استقامة وصراحة وصدق.

وقد ازداد تقدير جدك له، عندما كان يقارن بين سلوكه وسلوك

خاليك، وبين تصرفاته الكريمة إزاء ما يحاولان أن ينزلا به من أضرار. واشتد تأثره في إحدى الليالي عندما تحمل والدك بشهامة وزر أعمالهما المخالفة للقانون أمام رجال الشرطة، في رجولة وعدم تظاهر، وقد بلغ تأثر جدك بكريم خصاله حدا دعاه إلى أن يشكر والدتك على حسن اختيارها لهذا العضو الجديد الذي ألحق بالأسرة.

ودأب خالاك على محاولة الإضرار به، وكان يعجب لذلك ويقبل علي متسائلا عن الدافع لهما على ذلك، وكانت والدتك تبكي أسى على ما يصدر عن أخويها في حق زوجها. وكنت أحاول أن أسري عنهما وأهدئ من ثائرة أمك.

وقد ضاق والدك ذرعا بمقامه بيننا، وكان يصارحني بأنه يرغب في الرحيل إلى بلد آخر، حيث يطيب له العيش بعيدة عن هذا البيت المشحون بالعداء له، بالرغم مما كان يقوم به جدك من محاولات لتنقيته. وسنحت له الفرصة لتحقيق ما كان يراوده من آمل بالسفر إلى استراخان، لإقامة قوس نصر احتفالا بزيارة القيصر لها. وكان أن رحلا معا في أول سفينة بخارية، وقد أحزنني فراقهما كثيرا. كما أحزن والدك رحيله عنا، ولكن فرفارا، والدتك، لم تحاول أن تخفي سرورها برحيلها! وهكذا رحلا، وهذه هي نهاية القصة!

ثم نهضت إلى النافذة تتأمل السماء قائلة:

– حقيقة أن والدك لم يكن من لحمي ودمي ولا من أبناء عشيرتي، ولكنه كان أقرب إلى قلبي من جميع هؤلاء!

وكان جدي يتردد على الغرفة من حين لآخر، محاولا أن يشتم بأنفه ما يمكنه أن يضع به يده على دليل قاطع، وكان يسألني أحيانا:

- أليكس، هل كانت تحتسي خمرا؟

- لا.

- إنك تكذب. لقد رأيتها بنفسي!

ثم ينصرف وقد اختلط الأمر عليه.. وما أن يدير ظهره لنا، حتى تضحك جدتي منه، وتعلق على الموقف بعبارات تهكمية خفيفة الظل.

وذات يوم ، أقبل جدى مطرقا وأومأ لجدتي بأن تقترب منه

- هل رأيت كيف تجرى الأمور؟

- أجل.

- وماذا ترين في هذا؟

- سيكون هناك زواج. لعلك تذكر ما حدثتني به عن الرجل العريق؟

- أجل.

- ها هو ذا رجلك

- تلك وجهة نظرها.

وانصرف جدى قلقا، وسألت جدتي:

- عم كنتما تتحدثان؟

– لو يجب أن تعرف كل شيء! إنك أن عرفت كل شيء الآن، فماذا يتبقى لك أن تعرفه عندما تشب عن الطوق.

وبعد أن أطرقت قليلا سمعتها تقول لي.

– يا لجدك المسكين! أواه له: أليكسي، ولا كلمة عن الموضوع، لقد نزل الخراب بجدك. إذ أنه كان قد أقرض أحد السادة مبلغا كبيرا من المال وكان مآل هذا السيد الإفلاس!

وجلست جدتي ساهمة شاردة الذهن. وكنت أرى تجهم وجهها وما يختلج به من أسى.

– خبريني عما يجول بخاطرك.

وكأن سؤالي قد أعادها إلى عالم الحقيقة، مما كانت تحلق به من خيال وأحلام.

أجابتني:

– كنت أفكر فيما أقوله لك

وبعد أن ترددت قليلا، استطردت قائلة:

– إنه العناد يا أليكس! العناد والغرور، وأشياء أخرى لم يأن الأوان بعد لتدركها؟

وكانت زيارات والدتي لي نادرة قصيرة، وكانت تزداد أناقة وحسنا يوما بعد يوم، وكان من اليسير أن ألحظ ما طرأ عليها من تغيير، كما لمست هذا التغيير في جدتي أيضا، وشعرت بأن شيئا ما يجري دون أن أدري له كنها،

وأنهما تحاولان كتمانه عني.

ولم تعد قصص جدتي لتستحوذ على شيء من اهتمامي حتى ما يدور منها حول والدي. كان كل همي أن أعرف ما يدور حولي، فاستبد بي الضيق والملل، واستبد بي الفضول والقلق.

– بماذا تعللين قولك أن روح والدك لا تشعر براحة أو سلام.

الفصل الثاني عشر

واستيقظت ذات مساء من قيلولتي لأجد تحسنا في صحتي، أو بأنني أستطيع أن أحرك ساقي، وحاولت أن أنهض من فراشي وأجرب الوقوف على قدمي، ولكن ساقي لم تحتملا ثقلي وسقطت على الأرض وزحفت إلى الباب ومنه إلى الدرج، وأنا أتوقع اندهاشهم، ودلفت إلى غرفة والدتي زحفا على يدي وركبتي فسمعت سيدة عجوز تقول:

– فليعط قليلا من خلاصة التوت، وسترون أن حاله سيتحسن.

تساءلت فجأة:

من عساها تكون؟

فأجابني جدي بلهجة لم أرتح لها:

– جدة أخرى لك.

وأخذت والدتي ضاحكة بيد يوجين ماكسيموف وقدمته بعد ذلك لي، وانحنى ماكسيموف يربت على ظهري قائلا:

– سأهدى إليك مجموعة ألوان للرسم.

وكانت الشموع المضاءة تملأ الغرفة، وتتراقص بشعلاتها، وشعرت بكل شيء حولي يتراقص وبالدنيا تدور بي وتتمايل، وسمعت جدتي تقول:

– إنه يفقد وعيه

وأسرعت إلي تحملني إلى باب الغرفة، ولكنني لم أكن في حالة إغماء. إن كل ما حدث أنني أغمضت عيني، وما أن صعدت بي إلى غرفتي، حتى بادرتها سائلا:

– ولماذا لم تخبرني والدتي بذلك؟

– كفاك أسئلة.. أمسك لسانك!

– إنكم أدعياء كاذبون!

ورأيتها تدفن وجهها في الوسادة منتحبة وهي تقول:

– ولماذا لا تبكي بدورك؟.. ابك ما شاء لك البكاء.

ولم تكن بي رغبة في البكاء، وتظاهرت بالنوم، وصورة هذه السيدة ذات الثوب الأخضر لا تبرح مخيلتي، ولم تجد جدتي بدا من أن تتركني وتنصرف.

وتوالت الأيام مملة كريهة؛ فقد رحلت والدتي بعد حفل الزفاف إلى مكان ما، وعاد الهدوء إلى البيت وخيم عليه السكون.

وذات صباح، أقبل جدي وجدتي لرفع ما على قاعدة النافذة من ثلوج متراكمة، وسمعت هذا الحديث يدور بينهما.

– أكولينا، ماذا كان تأثير الأمر عليك؟

– ماذا تعني؟

– هل أنت مسرورة أم لا؟

وكانت إجابتها على نسق ما أجابتني به:

– كفى، أمسك لسانك..

وسمعت أصوات الطيور في الحديقة تنبئ عن عودة الحياة بعد أن خفت وطأة الشتاء. ونهضت من فراشي، فقالت لي جدتي:

– إلى أين؟

– إلى الحديقة.

– يحسن بك أن تتريث لأنها لم تجف بعد.

ولم أعبأ بما قالته لي، وكيف كنت ضيق الصدر بكل ما يحيط بي. وانطلقت إلى الحديقة أنعم بجوها الخالص ونسيمها المنعش، ورحت أجول بها مارا بكل شبر فيها.

وكثر تردد السيدة ذات الثوب الأخضر على بيتنا، وكنت أراها في أوقات الغداء والشاي والعشاء، لا تتوقف عن الكلام وعن إبداء الملاحظات متدخلة في كل شأن من شئوننا، وكنت أتحاشى الاقتراب منها، وأتحرى الابتعاد عنها، وسمعتها تقول لابنها غير مرة:

– يوجين، إن هذا الصبي في حاجة إلى الكثير من التهذيب.. هل فهمت؟

وكان يومئ برأسه موافقا مطيعا متأدبا.

وازدادت كراهيتي لهذه المرأة ولولدها بمرور الأيام، وضقت ذرعا بملاحظاتها التي كانت لا تفتأ توجهها إلي، ونحن جالسان إلى مائدة الطعام،

حتى كان سلوكي ملحوظ التحدي لها. وذات مرة له اضطرت والدتي أن تطردني إلى غرفتي بالسطح قبل أن أتم طعامي، وقد لحقت بي جدتي وهي تكتم ضحكاتها قائلة:

– أيها القرد الصغير!

وقد بلغت بي كراهيتي لهما حدا دفعني إلى محاولة الإساءة إليهما بأية صورة من الصور، وكم نالني من عقاب من جزاء سلوكي هذا. ولم أكن لأرتدع أو أقلع عن تصرفاتي هذه، حتى جاءتني والدتي في يوم من الأيام قائلة:

– ألا تعلم أن تصرفاتك تسبب لي حرجا كبيرا؟.

ورأيت عينيها مغرورقتين بالدموع وهي تضمني إلى صدرها، وقد آلمني هذا وتأثرت به أيما تأثر. كنت أود أن تضربني بدلا من أن تشكو إلي حالها. ووجدت نفسي مضطرا إلى تنفيذ وعدها بعدم العودة إلى الإساءة لآل ماكسيموف، على أن تكف عن بكائها؛ فطابت نفسا، وقالت لي بلهجة تفيض حنانا:

– إن كل ما أرجوه أن تكون مؤدبا معهما. إننا مسافران إلى موسكو، وبعد عودتنا ستأتي للإقامة معنا. وكل ما أتمناه أن تستقيم الأمور بينكما، وأن تتفرغ للاهتمام بدراستك. إن مستقبلك لك وحدك، وبقدر اجتهادك سيكون تحصيلك. هيا امرح وارتع الآن.

ولكم كان بودي أن أناشدها عدم إتمام هذا الزواج، وأعدها بأني سأعاونها في الحياة وأعمل على راحتها. وعلمت من جدي، عندما كنت

بالحديقة ذات يوم أعني ببعض غرسها، أنه بسبيل بيع البيت ليحصل من ثمنه على مبلغ يصلح بائنة لوالدتي. وكان بالغ التأثر تفيض عيناه بالدموع وهو يصارحني بهذا النبأ المزعج.

وكنا جلوسا إلى مائدة الشاي، قبل رحيل والدتي وزوجها إلى موسكو، وما أن نهضت والدتي لتعد حقائبها حتى قال لي زوجها:

– كنت قد وعدتك بمجموعة ألوان للرسم، ولم أجد هنا ما يصلح لأن أهديه إليك، وسآتيك بها من موسكو.

– وماذا أفعل بها؟

– ألا تحب الرسم؟

– لا أعرف عنه شيئا.

– إذن فسآتيك بهدية أخرى!

وعندئذ أقبلت والدتي، وكانت قد سمعت نهاية ما دار بيننا من حديث، فقالت:

– لن نتغيب كثيرا، فسرعان ما سنعود إليكم.

ورحلت والدتي في الصباح المبكر، وشعرت بعد رحيلها بأن نافذة من حياتي قد أغلقت وصفق مصراعاها في وجهي. وعدت مع جدي إلى حديقة المنزل نسري عن أنفسنا بتعهد أشجارها وتقليم فروعها، وسمعت جدي يقول لي وهو يقلم فرع شجرة توت صغيرة:

– يجب أن تعتمد على نفسك من الآن فصاعدا. لقد بدأت أمك حياة

جديدة ستجعلها بمعزل عنك، مهما يكن من أمر ما تقوله لك، وستنجب أطفالا يصبحون أكثر اتصالا بها. أما جدتك فقد انغمست في احتساء الخمر، ولم تعد يرجى منها أي نفع. أما أنا، فسرعان ما سأتركك عندما تدنو منيتي. ومن هنا يصبح من المتعين أن تعتمد على نفسك، وأن تعمل لكسب قوت يومك، وطن نفسك على هذا، وتول أنت جميع أمرك! عش في سلام مع الغير عيشا هادئا كريما، ومهما يكن من أمر ما يقال لك استمع له على أن تفعل ما تعتقد أنه في مصلحتك

ومر الربيع وأقبل الصيف، وأتاح لي من دفئه أن أقضي كثيرا من الليالي بالحديقة. وكانت جدتي تقبل أحيانا لتشاركني في فراشى الذي أعددته بها، وكان جدي يحذرها نومها في الهواء الدق خشية أن تصاب بنزلة شعبية.

ولم يسبق لي في حياتي كلها، أن نعمت بهدوء مثل هذا الهدوء الذي نعمت به في صيف هذا العام. هدوء في المكان، وهدوء الاستغراق، وهدوء مع البيعة الساكنة في ليالي الصيف المتلألئة النجوم.

وأفقدتني كثرة التكرار، ما كان لحديث جدي من أهمية، بل وشعرت بالسأم من كثرة ما كان يردده على مسامعي من عبارات التشاؤم المغلفة في ثوب من النصائح والإرشاد. ثم تكرر شجاره مع جدتي وطرده لها من المنزل لتقيم مع أحد ولديها بضعة أيام، ثم تعود ليستأنفا الشجار من جديد، وهكذا كنا نعيش في دائرة مفرغة لا تنتهي، حتى ضقت ذرعا بحياتي كلها. كنت قلقا غير مرتاح النفس فريسة للهم والحزن، شارد الذهن

مبلبل الخاطر، وكثيرا ما استفسر مني جدي عن السر في حالتي هذه، وكنت لا أجيبه بما يشفي غليله، وكان يدخل معي في محاضرة طويلة عنعلم النفس، والانقباض، والتشاؤم، والتفاؤل، إلى غير ذلك مما لا أعي منه شيئا..

وذات صباح، بينما كنا نتناول الشاي، وكان ذلك قبل بيعه البيت ببضعة أيام، أعلن جدتي:

– لقد آويتك في بيتي طوال هذه السنين، باذلا أقصى ما في وسعى لأوفر لك عيشا كريما وحياة رغدة. وقد آن الأوان لتتولى جميع أمرك!

وتلقت جدتي النبأ في هدوء دون أن تحرك ساكنا ، وكأنها كانت تتوقع سماعه من قبل، وأخيرا قالت له:

– إن ما قدر يكون! لا بد مما ليس منه بده.

واستأجر جدي غرفتين صغيرتين في بيت قديم عند أسفل التل، واستقر بنا المقام فيهما بعد أن افتتحت جدتي حياتنا بهما بدعائها وصلواتها، راجية أن يكون حظنا أحسن عن ذي قبل.

وقد آلمني فراق حديقتي التي كنت قد ألفت المقام فيها في الأشهر الأخيرة حيث طاب إلي النوم فيها طوال فصل الصيف، وحيث جعلت لي منها سكنا وفراشا .

وما كدنا نستقر في سكننا الجديد، حتى عادت والدتي، وكانت شاحبة الوجه تشع عيناها بريقا غريبا لم آلفه من قبل هذا، وتأملتنا وكأنها ترانا لأول مرة دون أن تنطق ببنت شفة، بينما كان زوجها يذرع المكان غدوا

ورواحا، واضعا يديه خلف ظهره، وأخيرا سمعت والدتي تقول لي:

– لقد ازداد نموك

وربتت بيدها على كتفي.

ومد زوج والدتي يده لي مصافحا.

– كيف حالك؟ كل شيء على ما يرام؟ إن هذا المكان رطب.

وكانت بوادر التعب والإنهاك بادية عليهما، كما كانت ثيابهما متسخة وهندامهما غير منسق، ولم يطلبا أكثر من مكان يستريحان فيه. ولاحظت أن الجو يسوده التوتر ونحن جلوس إلى مائدة الشاي. وسألهما جدى دون أن يلتفت إليهما

– هل فقدتما كل شيء في الحريق؟

– كل شيء، وكان من حسن حظنا أننا نجونا بأنفسنا.

– إذن، فلم يكن الحريق ذريعة؟

ومالت والدتي على أذن جدتي هامسة، ولاحظت أن الجو يزداد توترا. وسمعت جدي يقول بنبرات تفيض ازدراء:

– غير أنه بناء على ما وصل إلى علمي، يا عزيزى يوجين، لم يكن هناك حريق على الإطلاق. لقد أطاحت مائدة الميسر بكل ما تملكان.

وران الصمت على الجميع، ولم تك لتسمع غير قطرات المطر المتساقط على النافذة. وأخيرا قطعت والدتي حبل السكون قائلة:

– أبتاه..

فقاطعها جدي قائلا:

– لا أحب أن يدعوني أحد بهذا النداء. أليس هذا ما تنبأت به لكما؟ امرأة في الثلاثين وشاب في العشرين؟.. هذا ما كان منتظرا من رجلك الأرستقراطي.. وما قولك في ذلك كله أيتها الابنة المدللة؟

ودخل أربعتهم في نقاش طويل حاد، وارتفعت أصواتهم، وكان صوت زوج والدتي أكثر ارتفاعا. ونهضت إلى مدخل المنزل، وقد حرت في أمر ما طرأ على والدتي من تغير..

ووجدت نفسي بعد فترة وجيزة، وفي ظروف لم أعد أذكر عنها شيئا، في سكن جديد بناحية سرموفو، بيت متواضع أبعد ما يكون عن النظافة. واستقل زوج أمي معها بغرفتين في واجهة المنزل، وأقمت مع جدتي بالمطبخ. وكان على مقربة منا أحد المصانع يرسل الدخان كثيفا من مداخنه، فيبعث في نفوسنا الإحساس بالدفاع في زمهرير الشتاء.

وعلى كاهل جدتي، كان يقع عبء شئون المنزل، من طهو إلى تنظيف إلى غسل، مما كان يقتضي منها مجهودا كبيرا كانت تنوء به في هده السن المتقدمة، وكنت أشفق عليها من كل هذا الإعنات، وكثيرا ما كانت تخرج بعد الفراغ من عملها إلى المدينة قائلة:

– لأطمئن على حال الرجل العجوز

– هلا اصطحبتني معك؟

– ستجمد أطرافك من شدة البرد. ألست ترى تساقط الثلوج؟

وكانت تقطع المسافة البالغة أربعة أميال إلى المدينة سيرا على قدميها، في زمهرير الشتاء، وتحت الثلوج المتساقطة.

وكانت والدتي تنتظر مولودا، وكنت غير راض عن حالتها الصحية، وأصبحت أمقت البيت والمصنع والمدينة كلها، ووجدتني أسألها في يوم من الأيام:

ما الذي حدا بنا للإقامة هنا؟

إنك لا تفتأ تسأل وتستفسر!

ولم تكن لتتحدث إلي إلا قليلا. تعال هنا.. اذهب إلى هناك.. جئني بهذا الشيء.. خذ هذا! إلى آخر ما هو من هذا القبيل من أوامر وكلام سطحي، أما ما كنت أصبو إليه من حديث فلم أكن لأحظى منه بشيء.

وكان لشعوري بأنني أفتقد الحب والحنان، أكبر الأثر فيما كنت أشعر به من سخط وكبت، وقد ضاعفت معاملة زوج أمي القاسية من حنقي على وجودي كله. كما كثرت مشاحناته مع والدتي ولاحظت عدم احترامه لها كما كان شأنه في أول عهده بمعرفته بها.

وازداد ضيقي وبرمي بحياتي هذه، حتى بلغ الذروة عندما وضعت والدتي مولودها، فقررت أن أعود للإقامة مع جدي الذي كان يقيم بقرية كونافين، في حجرة صغيرة بأحد المساكن المقامة عند مشارف المقابر، واستقبلني ضاحكا وهو يقول:

– ماذا جرى؟ إن الأم هي أحسن صديق كما هو مفروض، أم ترى أنه

هو جدك وشيطانك القديم؟ بخ لك!

وما كدت أستقر بمنزلي الجديد، حتى أقبلت جدتي ومعها والدتي والمولود الجديد. واصطحبوني معهم إلى مسكن جديد، وعدت ثانية للإقامة مع والدتي. وألحقت بالمدرسة، وكانت ثيابي بادية الغرابة حتى أطلق علي زملائي لقب «الآس الديناري». وقد حظيت بمحبة أقراني ولكنني لم أحظ بذلك من المدرس والكاهن لأنني لم أكن أحب بصفة عامة كل من يكثر من إصدار الأوامر إلي، غير أنني استطعت أن أواصل دراستي في هذه الفترة وأتغلب على نزعتي هذه، بفضل تدخل والدتي لإصلاح الأمور حتى استقامت وتحسن الجو بيني وبين أساتذتي.

وكما تعودت دائما ما كنت أنتهي من متاعب إلا لأواجه بغيرها، فما أن صفا لي الجو في المدرسة حتى بدأ يتلبد بالغيوم في البيت؛ ففي إحدى الأمسيات سمعت والدتي تتضرع لزوجها قائلة:

– يوجين، أتوسل إليك...

ثم يقاطعها زوجها قائلا:

– صمتا وإلا حطمت رأسك!

ويشتد الجدل بينهما، حتى يصل إلى سمعي صوت اعتدائه عليها بالضرب، وأدخل مندفعا لأراها وقد انطرحت أرضا تتلوى ألما، ولم يتوقف الوحش عن ذلك، بل استمر يركلها بقدمه في صدرها بقسوة حدت بي لالتقاط سكين الخبز التي كانت على المنضدة، واندفعت بكل ما في من قوة أطعنه في جنبه.

ولحسن الحظ، أدركت والدتي ذلك، ودفعته جانبا في الوقت المناسب، فلم تحدث به السكين إلا جرحا سطحيا غير نافذ، وقد فوجئ الرجل بمحاولة اعتدائي عليه، فرمقني بنظرة قاتلة، واندفع من الغرفة لا يلوي على شيء، وهو ممسك بجنبه مزمجرا ساخطا.

وفي ساعة متأخرة من الليل، بعد أن انصرف زوجها إلى بعض شأنه، أقبلت علي والدتي تقبلني، وقد فاضت الدموع من عينيها قائلة:

– الذنب ذنبي، فلتغفر لي يا ولدي.. لقد تسببت في كثير من شقائك!.

وإني لأذكر الآن بجلاء، كيف أكدت لها أنني كنت بسبيل أن أقتله وأن أضحي بنفسي من أجلها. وإلى يومنا هذا، وحتى هذه اللحظة من حياتي، لم تمح من ذاكرتي صورة ساقه تعلو في الهواء لتهبط على صدرها في قسوة ووحشية. وقد قدر لي في السنوات الأخيرة – بعد موت والدتي – أن أرى هذا الرجل المتجبر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة في أحد المستشفيات، وكنت قد ذهبت لزيارته مع أخي «نيكي» الذي أنجبته أمي منه، غير أنني في هذه اللحظة التي كنت أرى فيها شعلة الحياة تخبو في عينيه، وكان قلبى يفيض حزنا وحسرة عليه، لم أستطع أن أبعد عن مخيلتي صورة هذه اللحظة الرهيبة التي كان يعتدي فيها على والدتي، بالرغم من انقضاء الأعوام تلو الأعوام، وصفاء الجو فيما بيننا بعد ذلك؛ فإن هذه الصورة لم تزل عالقة بذهني على مر السنين!

الفصل الثالث عشر

عدت ثانية إلى جدي، استقبلني قائلا:

– أيها الشقي ماذا وراءك؟.. اذهب إلى جدتك تطعمك.

فتعقب جدتي قائلة:

– بكل تأكيد.

ثم يلتفت إلي موضحا:

– إننا نعيش منفصلين. لا شأن لأحدنا بالآخر

كانت جدتي جالسة بجوار النافذة، ولاحظت أنها لم تتغير كثيرا. أما جدي فقد بدا أكبر سنا وكثرت تجاعيد وجهه وابيض شعر رأسه، وعلقت جدتي على ما قاله ضاحكة، وراحت تصف حياتهما الجديدة بعد أن باعا كل ما يملكانه، بما في ذلك معطفها الفرو الثمين.

وعرفت أنه كان يذهب إلى بعض معارفه القدامى ليقترض منهم، شاكيا ما صار إليه حاله، نتيجة لتصرفات أبنائه. وأن أسلوبه هذا در عليه مالا استثمره مع بعض معارفه الجدد. كما عرفت منها أيضا أنها عادت لصناعة الدانتلا، حرفتها القديمة. وقد اتفقا على اقتسام نفقات العيش، وتحملت جدتي عبء إقامتي معها، وعشت في هذا الجو الجديد من حياة هذين الشيخين، بعد أن ساءت بهما الأحوال، وولى عنهما رغد العيش في أواخر أيامهما. ورأيت أن أتحمل نصيبي بمقدار ما في وسعي، فكنت أخرج

في أيام العطلة وفي الصباح المبكر إلى الطرقات لجمع القمامة وكنت أبيع ما أجمعه إلى التجار المختصين، وأذهب بحصيلة ذلك إلى جدتي التي كانت تتقبله مني، وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

ولم يحل ذلك بيني وبين مواصلة دراستي وحرصي على التفوق على زملائي الذين بدءوا ينفرون مني وينأون عني بجانبهم، ترفعا عن مخالطة جامع القمامة كما كانوا يسمونني. واجتزت امتحاني الثالث بتفوق، وحصلت على جوائز الامتياز التي عدت بها إلى المنزل فرحا، وعرضتها على جدي الذي عبر عن إعجابه بذكائي، بالرغم مما نمر به من ظروف قاسية وشظف عيش. واقترح جدي أن يحتفظ بها لي في صندوقه، ولكن جدتي كانت طريحة الفراش منذ فترة طويلة، فرأيت أن أذهب بجوائزي إلى إحدى المكتبات لبيعها، وعدت لجدتي بثمنها.

وازداد نشاطي في العطلة المدرسية؛ فتضاعف إيرادي، وسرعان ما عادت والدتي لتنضم إلينا ومعها طفلها نيكى بعد أن فصل زوجها من عمله ورحل عنها تاركا ابنه. وكانت هزيلة مريضة تكاد ساقاها لا تحملانها، أما أخي فكان هزيلا سقيما، وقال عنه جدي بعد أن ألقى نظرة عليه:

– إنه في أمس الحاجة لغذاء وافر. الأمر الذي لا يتسنى لي وقد تضاعفت أعبائي بإيوائكم جميعا!

وعهد لي بالعناية بأخي نظرا لضعف والدتي وعدم استطاعتها ذلك، وكنت قد بدأت أشعر بميل إليه، غير أنني كنت أشعر بحاجتي إلى الانطلاق في الطرقات جريا وراء رزقي الذي ألفته وطاب لي ثمره. وكانت صحة

والدتي في تدهور مستمر، وكنت أرى شبح الموت يحوم حول ركنها الذي ترقد به. وكان صوتها خافتا لا يكاد يسمع، وكانت من الضعف بحيث أنها لم تكن لتستطيع حمل أخي «نيكي». ولم يخف سوء حالها على جدي، حتى أنه كان يتولى إطعام الطفل عنها، مع ما يستطيعه من شئونه الأخرى، وكنت أسمعه يتحدث إلى نفسه ليلا، بعد أن يتأمل والدتي في فراشها وفي أحضانها طفلها

– إذن فهو الموت الذي بدأ رسوله يطرق بابنا. يا لهذه الحياة! أفبعد كل هذا الصراع في سبيلها ينتهي بنا الأمر إلى ما نحن فيه؟ ماذا جنينا؟ وفيم كان كل هذا الجهاد؟

وفي يوم أحد من شهر أغسطس، علمنا بأن زوج والدتي قد عاد للمدينة ووجد له عملا، وذهبت جدتي إليه بابنه نيكي في شقته التي استأجرها بالقرب من محل عمله. وكان المفروض أن تنتقل والدتي إلى هذه الشقة بعد بضعة أيام. وذات صباح، وفي صوت أعلى نبرة وأكثر وضوحا، أمرتني والدتي قائلة:

– اذهب واسأل يوجين أن يحضر. هيا، أسرع ولا تتلكأ!

ولاح لي أنها تبتسم، وأن عينيها قد استعادتا بريقهما، واتضح أن زوج والدتي كان في صلاة الأحد، وبعثت بي جدتى لشراء بعض حاجاتها. ولما عدت، وجدت والدتي جالسة إلى المائدة، مرتدية ثوبا أنيقا وقد صففت شعرها واستعادت بعض روائها.

– هل تشعرين بتحسن؟

ولست أدري لماذا كنت أشعر بشيء من الخوف وأنا أستفسر منها عن حالها.

– أين كنت؟

وحاولت أن تمسك بي:

– اقترب مني!

ولكنني ابتعدت عنها وجلست على حافة الفراش فزعا أرقب حركاتها التي بدت لي غير طبيعية. ونهضت تتحامل على قدميها إلى فراشها وهي تترنح ألما، وألقت بنفسها عليه لاهثة تمسح على وجهها بمنديلها.

– قليل من الماء.

فنهضت وأتيتها بقدح منه، وحاولت أن ترفع رأسها جاهدة، فعاونتها على ذلك وشربت جرعة ثم نحت يدي جانبا، واستلقت تتنفس بصعوبة وبصوت مسموع. ورأيتها ترمقني بعينيها وتستقر نظراتها على وجهي، وتنعرج شفتاها عن ابتسامة واهنة أسبلت معها جفنيها رويدا رويدا. ثم رأيتها تمسك صدرها بيدها، وتكسو وجهها صفرة الموت، وتنفرج شفتاها دهشة ورهبة.

كم من الوقت قضيته واقفا إلى جانب فراش موت أمي؟ لست أدري. وكم مرت عليّ من الدقائق وأنا واقف في مكاني أتأمل جسدها المسجى ووجهها الساكن في هدوء الموت، وفي يدي قدح الماء الذي أتيتها به. كنت وحدي معها ومع ملاك الموت. وهكذا قدر لي أن أكون أنا آخر من ترى

قبل رحيلها الأبدي، كانت جدتي عند زوج ابنتها، وكان جدي قد خرج لبعض شأنه.

وعاد جدي، فالتفت إليه قائلا:

– لقد ماتت أمي.

فألقى نظرة على فراشها حيث كانت ترقد قائلا:

– ماذا تقول؟ فيم هذا العبث؟

وكان زوج أمي قد أخطر برسالتها التي نقلتها إلى جدتي:

"ماما لم أجده في منزله، وعلمت منها أنه ذهب ليؤدي صلاة الأحد"

فأقبل في هذه اللحظة، ودخل حريصا على ألا يحدث صوتا أو جلبة. واقترب من فراشها فسمعته صارخا في فزع: – إنها ميتة! ورأيت جدي وقد اتسعت عيناه دهشة وراح يحملق في لا شيء، وفي اليوم التالي دعاني جدي قائلا:

– أليكسي.. لا أستطيع تحمل مسئوليتك؛ فاخرج إلى الدنيا وتول أنت جميع أمرك

وهكذا خرجت إلى العالم.

الفهرس